إحسان عبد القدوس

حتى لا يطير الدخان

أقدام حافية فوق البحر

حتى لا يطير الدخان

١

كان أول مــا يلفت النظر فى شخـصية فــهمى عبدالهادى هو إلحاحــه المتواصل عليك حتى تقبل سيجارة يقدمــها لك ثم حرصه على أن يشعل لك السيجارة بـولاعة أنيقة يخرجها مـن جيبه، وهو فى خـلال الثوانــى التى يستـغـرقهـا فى تقـديم السـيجـارة وإشـعالهـا لك يحدثك عن آخـر أخـبار السـجائر، عن ارتفـاع أسعارها، أو عن أصنافها الجديدة أو عن ارتفاع كمية استهلاك السجـائر فى أمريكا رغم الحـملة القوميـة ضد التـدخين أو... أو... وبعد أن ينتهى من كل ذلك ويعيـد علبه السجائر والولاعة إلى جـيبـه تكتـشف أن عـبدالهـادى لا يدخن.. فـإذا أبديت له دهشتك قال وهو يضـحك :

– إنى أكتفــى بخدمة مزاج الأصدقــاء لأنى ولدت بلا مزاج

وربما كـانت قصة فـهمى عبدالهـادى مع السجائر هى امـتداد لقصته مع الحشيش، فقد مـرت عليه فترة حاول فيها أن يدخن السجائر وفى نفس الفترة حاول أيضا أن يدخن الحشيش.

وكـان أيامهـا لا يزال طالبا فى الجـامعـة يعيش بخـمسـة جنيهـات فى الشهر ترسلهـا له أمه من قرية كفر حتـاتة حيث تقيم العائلة كلها فقد كـان فهمى هو أول فرد فى العائلة يدخل القـاهرة ويلتـحق بالجـامـعـة.. وقـد وصل بفـضل أمـه التى استسلمت لطموحه واستطاعت أن تدبر من الأفدنة الثلاثة التى

ورثتها العائلة عن أبيه الذى توفى وهو لا يزال فى العاشرة من عمره، ما يكفى ليستمر فى المدارس حتى يحصل على شهادة التوجيهية وما يكفى أيضا لينتقل إلى القاهرة ويلتحق بكلية الحقوق.

وكان يعيش فى القاهرة مقترا على نفسه مقدرا مدى الحرمان الذى تعانيه أمه وأخوته حتى يوفروا له هذه الجنيهات الخمسة التى يرسلونها له كل شهر، بل كان يعلم أن أمه تضطر إلى مد اليد لتوفر له هذه الجنيهات حتى لا تتركه للضياع فى القاهرة، وأمه امرأة قوية استطاعت أن تجعل من نفسها شخصية خدومة لها قيمتها فى القرية واستطاعت أن تكسب رضاء واحترام كل الأغنياء.. وربما ورث عن أمه هذه الشخصية، فقد كان يستطيع دائما أن يكسب صداقة من حوله، وكان أحيانا يتعمد اختيار أفراد معينين ليصل إلى صداقتهم خصوصا بعد أن أصبح فى كلية الحقوق.

كانت كلية الحقوق على أيامه تضم أكبر تناقض طبقى بين مختلف الكليات.. فيها الأغنياء جدا والفقراء جدا ربما لأنها كانت الكلية المخصصة لتخريج السياسيين والوزراء وهو ما يثير طموح الأغنياء والفقراء .. وقد استطاع أن يصل إلى صداقة طلبة من الأغنياء جدا بالنسبة له، وكان يحتفظ دائما بشخصيته بينهم فهو لا يمد يده ولا يشكو ولا يعلن فقره، إنما هى دائما صداقة قائمة على تبادل الخدمات والاشتراك فى الجلسات.. وكان يكتفى بالمشاركة فى الجلسات الهادئة المتصلة بالحياة الجامعية رغم أنه كان يعلم أن لأصدقائه حياة أخرى.. حياة الليل.. إنه لا يملك حق المشاركة فى حياة الليل.. ويفضل أن يحدد شخصيته بينهم داخل محيط الجامعة فهو يتميز عنهم بأنه أكثر جدية وتفوقا فى دراسته، وحاجتهم إلى

خدماته تقوم على نقل مذكرات المحاضرات وشرح التفاصيل التى يعجزون عن فهمها، ثم الأهم من ذلك هو أن يكون واسطة الاتصال بين أصدقائه وجميع التكتلات السياسية والحزبية القائمة بالجامعة.. بل إنه وصل إلى أن أصبحت هذه التكتلات فى حاجة إليه ليشد إليها اصدقاءه، ووصل من قدرته على استغلال نفسه إلى أنه كان يستطيع أن يشد فعلا هذا الصديق إلى حزب الوفد والصديق الآخر إلى الإخوان المسلمين والثالث إلى الشيوعيين فى حين أنه هو نفسه لم يكن ينتمى إلى أى تكتل من هذه التكتلات، وكان أيضا يستطيع أن يشترك برأيه عن طريق اطمئنان الجميع إلى شخصيته فى الإعداد لكثير من التحركات الطلابية السياسية سواء كانت الخروج فى مظاهرات علنية أو التخطيط لعملية سياسية سرية ولكنه رغم هذا لم يشترك بنفسه أبدا فى أى مظاهرة ولا قام بأى دور فى أى عملية.

ورغم اعتزازه بالصداقات التى يكسبها فقد كان يعانى دائما من عقدة النقص والحقد والغيظ.. عقدة الفقر.. وهو ما كان يجعله رغم اتساع اتصالاته ونشاطه بين أصدقائه الأغنياء لا يستريح إلا بين الأصدقاء الفقراء.. ولكنه على قدر ما كان يخفى نقصه بالنسبة للأغنياء يخفى أيضا راحته بين الفقراء.. يخفى كل ذلك داخل قامته الطويلة وصدره العريض وابتسامته الدائمة وضحكاته السريعة وحديثه الذكى المثير الجذاب، بل كان يستطيع بشخصيته أن يخفى عن انتباه من حوله حلته الواحدة التى يرتديها طوال السنة وقد تمر عليه وهو بداخلها سنة أخرى، وقميصه المكرمش، ورباط عنقه الذى أكل بعضه البعض حتى أصبح كالفتلة وحذاءه الذى تلمع شقوقه.

وهو دائما محتفظ بهذه الشخصية حتى بالنسبة لصديقه

عبدالرؤوف. وكان عبدالرؤوف أقرب الأصدقاء إليه وأكثرهم التصاقا به.. كان فى حاجة دائمة إليه.. ولم يكن عبدالرؤوف يحتاج إليه فيما يخص الحياة الجامعية فحسب، بل كان فى حاجة إليه فى حياته الخاصة.. يروى له متاعبه مع أبيه وأمه، ويحكى له عن سهرات الليل، وعن مغامراته النسائية، وعن خلافاته ومشاجراته مع أصدقائه.. وكانت شخصية عبدالرؤوف عبارة عن مجموعة من النزوات.. أحيانا يبدو كأنه فى حاجة إلى رأى فهمى فى المشكلة التى يرويها له، وأحيانا يبدو كأنه يروى حكايته لفلاح جاهل حتى يعايره بجهله، وأحيانا يتكلم كأنه يستريح بأن يلقى متاعبه فى بئر.

وأهم ما كان فى حياة عبدالرؤوف هو الحشيش.. إنه حشاش مدمن.. وهو يستأجر شقة فى عمارة كبيرة بحى الزمالك يجتمع فيها بزملائه الحشاشين كل مساء.

ولم يكن فهمى يشارك عبدالرؤوف فى ليالى الحشيش.. لم يكن يخطر على باله أن يجرب الحشيش رغم أنه منذ ولد وهو يسمع عنه ويراه منطلقا بين شفاه وأنوف أغلب من يعرفهم.. إنما تعود منذ أيام القرية أن يمر على الحشيش من بعيد ويلقى التحية الواجبة.. سلام عليكم.. ثم يستمر فى طريقه مبتعدا.. وعندما دعاه عبدالرؤوف مرة أو مرتين للسهر معه فى شقة الحشيش اعتذر متمسكا بحرصه على ألا يعرض شخصيته لحياة الليل الخاصة بالأغنياء حتى لا يمرمطه فقره.. إنما كان يكتفى بقبول دعوة عبدالرؤوف إلى بيت العائلة وكان يفرح بهذه الدعوة بينه وبين نفسه.

لأنه يضمن بها أكلة مشبعة غنية.. بل إنه عندما كان يقترب موعد الامتحانات كان يبيت أحيانا فى بيت عبدالرؤوف استمرارا فى المذاكرة.

واستطاع فى هذه الأيام، أن يكسب صداقة الأب والأم، فقد كانا ينظران إليه كأنه أمل لانتشال ابنهما عبدالرؤوف مما هو فيه، بعد ما عرف عنه من تفوقه الدراسى، ورغم أنه لم يكن يتعمد الحرص على انتشال عبدالرؤوف فهو فى النهاية لا يدخل البيت بدعوة الأم ولا الأب ولكن بدعوة عبدالرؤوف ولو ضايقه بمحاولة انتشاله فربما توقف عن دعوته وحرمه من الأكلة المشبعة.. وكثيرا ما كان عبدالرؤوف يدعوه إلى البيت للمذاكرة ثم لا يكاد يفتح الكتاب حتى يغير رأيه ويذهب إلى شقة الزمالك ليعد جلسة حشيش ويترك فهمى فى البيت وحده يستذكر.. وينتظره إلى أن يعود إليه ليقدم له وجبة العشاء.

إلى أن بدأ الفقر يستبد بفهمى عبدالهادى.. حتى الجنيهات الخمسة لم يعد يستطيع الاعتماد عليها.. أمه سقطت مريضة ولم تعد تستطيع أن تمارس نشاطها فى جمع الجنيهات له.. وهو يتعذب بثقل الحمل الذى يلقيه على أمه.. إنها رغم مرضها لا تزال ترسل له.. أحيانا ثلاثة جنيهات وأحيانا جنيهين ويفاجأ فى شهر بعودة الخمسة جنيهات كلها.. وهو يبذل كل ما يستطيعه.. حاول أن يشتغل كاتبا فى محل بقال.. وحاول أن يعطى دروسا خصوصية.. وهو يقيم فى حجرة فى حارة من حوارى الجيزة داخل شقة يستأجرها موظف من أهل كفر حتاتة يدفع له جنيهين للنوم فقط.. ولم يعد يستطيع أن يدفع.

وكان خارجا من الجامعة بصحبة صديقه عبدالرؤوف، وقبل أن يركب عبدالرؤوف سيارته قال له فهمى ضاحكا :

– تعال نتمشى قليلا.. أريدك فى أمر هام.. وخرجا إلى الشارع وعاد فهمى يقول ضاحكا :

– أنت تعرف أنى معجب بذوقك.. أريدك أن تختار معى رصيفا أنام عليه.. هل تفضل أن يكون الرصيف محاذيا

للحديقة أم الأفضل حتى اتجنب البرد أن اختار رصيفا فى حارة.

وفهم عبدالرؤوف وقال ضاحكا :

– ستنام على رصيف فى الزمالك.

قالها عبدالرؤوف فى فرحة لا تخلو من شماتة، فقد كان يضيق بإصرار فهمى على أن يبدو دائما معتزا بشخصيته وكأنه ليس فى حاجة إلى أحد رغم أن كل أصدقائه يعلمون مدى فقره ورغم أن أسلوبه الملفوف الذكى فى الاستجداء لا ينفى أنه يستجدى.. إنها المرة الأولى التى يعترف له فيها بفقره وعجزه وبأنه فى حاجة لمن يؤويه قبل أن يضطر أن يعيش على الرصيف.

وأخذه معه إلى شقة الزمالك.. شقة الحشيش التى كان فهمى يعتذر عن دخولها كلما دعاه عبدالرؤوف إليها.. إنها شقة واسعة.. أربع حجرات ليس بينها إلا حجرة واحدة مؤثثة تأثيثا كاملا على الطراز العربى.. أو الطراز البلدى.. وسائد عريضة ملقاة على الأرض وكنبة استامبولى ومقعدان وسجاد ثقيل فخم وفى وسطها مدفأة كبيرة من النحاس اللامع تختزن فى جوفها قطع الفحم ثم دولاب من الخشب ـ الأويمة مزدحما بالجوز والأرجيل.. أما باقى الحجرات فمهملة.. إحداها بها سرير خشبى عريض قديم تعلوه مرتبة ملوثة حتى بآثار قطع الفحم المشتعل وكأن بعضهم كان يحلو له أن يمسك الجوزة ويشد أنفاس الحشيش وهو راقد فوق السرير.. وحجرة أخرى ليس فيها إلا سرير سفرى صغير وكمية من الكتب والمجلات القديمة ملقاة على الأرض.. وحجرة ثالثة وضعت فيها مائدة كبيرة تحيطها مقاعد متهالكة.. وفهمى يطوف بين الحجرات دون أن يبدو عليه شىء.. لم يكن أيامها قد وصل إلى مرحلة

اختيار وتذوق قطع الأثاث، بل لم يكن يهمه طراز أو شكل أى بيت.. إن أى بيت بالنسبة له لم يكن سوى جدران يدارى نفسه بينها، وأى حجرة من هذه الحجرات لا شك أنها أرقى من الحجرة التى كان يدفع فيها جنيهين فى الشهر.. وعبدالرؤوف يطوف الحجرات بجانبه ويخيل إليه أنه يرى فهمى فى صورة جديدة.. إن قامته الطويلة التى كان يحرص على أن يشدها فى مشيته ووقفته تبدو كأنه تركها ترتاح وتسقط فى شبه انحناءة، وصدره العريض الذى كان ينفخه يبدو كأنه ضمر وفرغ من الهواء المنفوخ.. وهذا الصمت ليس من طبيعة فهمى لقد كان دائما يتباهى بالكلام.. وقال عبدالرؤوف ولهجته لا تزال تحمل فرحة الشماتة :

– اعتبر البيت بيتك.. والمفتاح معك.. إذا أردت شيئا كلف به البواب ولكن عامله بخفة ورفق فهو خزينة أسرار هذه الحجرات.. اعمل معروف لا تغضب سيدنا البواب.. وسأمر بك هذه الليلة.

وتركه عبدالرؤوف بعد أن ترك له مفتاح الشقة .. وفهمى يطوف بالحجرات وهو ساهم.. إنه يحس بأنه أصبح فى طريق آخر.. لم يعد يستطيع أن يتباهى بالاعتماد على نفسه.. ولكنه مضطر.. إن ما يحصل عليه فى الشهر لم يعد يكفى إلا الفول والطعمية ومع التقتير على نفسه حتى فى الفول والطعمية.. المهم أن يجد نفسه فى هذا الطريق الجديد.. أن يقيم من نفسه شخصية جديدة تتفق مع وضعه الجديد.. وهو يحس كأنه يكره نفسه.. كأنه يخون الشخصية التى ورثها عن أمه وبناها فى القاهرة بالجنيهات الخمسة التى كان يستنزفها من دم أمه.. إنه يتمنى الآن أن تموت أمه.. أن يريحها المرض ويأخذها إلى رحمة الله، فلم يعد هناك ما يفرض عليها الحياة..

وقد كان هو الذى يفرض عليها الحياة وشقاء الحياة ومرض الحياة انتهت أمه.. باع شخصيتها لصديقه عبدالرؤوف.

وترك البيت وذهب إلى حوارى الجيزة وعاد يحمل كتبه وكل ما كان له فى الحارة التى كان يقيم فيها، واختار أن ينام على السرير السفرى الضيق القديم فهو رغم ضيقه يبدو أنظف من السرير العريض الآخر.. يبدو أن تاريخه أنظف واستعماله كان أرحم.. وستكون هذه هى حجرته فى شقة الزمالك.. وأخذ يرتب فيها كل احتياجاته ونقل إليها مائدة خشبية كانت فى المطبخ ووضع عليها كتبه وأقلامه.

وكان المساء..

وجاء عبدالرؤوف ومعه ثلاثة من زملائه الطلبة.. ودهش فهمى دهشة كبيرة.. أن بينهم عبدالعزيز جعفر.. إنه الشخصية الثانية فى زعامة الطلبة ويبدو أحيانا كأنه أقوى من الزعيم نفسه.. لم يكن يدرى أنه حشاش.

ولم يفاجأ أحد من الثلاثة به وهو يفتح لهم الباب.. ربما أبلغهم عبدالرؤوف أنه أصبح يقيم فى الشقة، أو ربما كان انضمام طالب آخر إليهم هو أمر عادى لا يستحق التعليق. واتجهوا جميعا إلى الصالة العربية إلى غرزة الحشيش.. وألقى كل منهم نفسه على وسادة من الوسائد المفروشة على الأرض، وجلس عبد العزيز جعفر على الأريكة ربما بصفته القيادية.. ورفع عبدالرؤوف غطاء المدفأة الكبيرة التى تتوسط الحجرة وأخذ يقلب الفحم وقال :

– هات لنا فحما من المطبخ يا فهمى.. تجده فى الصندوق الكبير بجانب الباب.

ونظر إليه فهمى فى حدة.. إنه يبدأ استخدامه كخادم فى البيت.. ولكن حدة فهمى هدأت سريعا.. يجب أن يكون أوسع

عقلا من هذه الحدة.. إن كلا منهم يقوم بالخدمة حتى الزعيم جعفر بدأ ينفخ فى الجوزة ويسلكها.. ولكنهم يخدمون أنفسهم.. كلهم يعدون الحشيش ليتعاطوه.. فهل يتعاطى الحشيش هو الآخر.. إنه لم يتعوده.. ولا يريده.. ولكن أصبح عليه أن يختار إما أن يكون مجرد خادم فى البيت وإما أن يكون حشاشا يساهم فى إعداد مطالب الحشيش.. إما أن يكون خادم الحشاشين أو يكون حشاشا يخدم نفسه.

وقام وعاد بقطع الفحم وهو يضحك بينه وبين نفسه.. كله حلال.. ليس هناك نص فى الإسلام يحرم الحشيش.. وهو فى الغرزة أقرب إلى الله منه فى خمارة.. وسمع باب الشقة يفتح ودخل عبدالله بواب العمارة.. إنه هو الآخر يملك مفتاحا للشقة.. وكان عبدالله البواب يحمل لفات كبيرة يبدو أنها تحوى أنواعا من الطعام.. بينها كفتة وكباب.. إنه يستطيع دائما أن يلتقط رائحة الكفتة والكباب.. ضمنت العشاء يا فهمى.. ودخل عبدالله البواب إلى المطبخ ثم خرج وانضم إلى الجالسين وبدأ يتولى بنفسه إعداد معظم متطلبات الجلسة.. وفهمى يرقب كل شىء باهتمام كبير.. كل عقله مركز فى عمليات الإعداد كأنه يرقب عملية خطيرة فى معمل كيميائى.. إن الحشيش علم.. علم كبير.

وبدأت الجوزة تدور.

وعندما وصلت إلى شفتيه حاول أن يتظاهر بأنه حشاش قديم، ولكن يبدو أنه ارتكب خطأ ما فقد انطلقت الضحكات من حوله.. ورفع شفتيه قبل أن يشد أنفاسه وشارك فى الضحك بافتعال وهو لا يفهم شيئا.. ثم عاد بشفتيه وشد أنفاسا متقطعة حاول أن يقلد بها أنفاس عبدالعزيز جعفر عندما مرت عليه الجوزة.. وعاد الضحك ينطلق من حوله.. وصاح زميله مصطفى عبدالمجيد :

- احنا معانا واحد مبتدىء ولا إيه.

وقال فاروق :

- روضة أطفال.

وقال صديقه عبدالرؤوف :

- طول عمره يرفض العلم.. الليلة التعليم اجبارى يا فهمى.

وقال فهمى وهو يقاوم موجة الكحة التى تقطع أنفاسه :

- الليلة الليسانس وحياتك عندى.. دعونى أتعلم يا جماعة.

وعاد يشد أنفاسه وهم يضحكون من حوله، وقد زاد الاهتمام به بعد أن اكتشفوا أنه لا يزال مبتدئا فى علم الحشيش.. إنهم يلحون عليه بالجوزة حتى بدأ يحس بنوع عجيب من الراحة.. مد ساقيه أمامه وأسند رأسه على الحائط وبدا كأنه يحلم من خلال ابتسامة معلقة بين شفتيه. إنه يجب أن يكتب خطابا إلى أمه.. أمى العزيزة.. أرجو ألا ترسلى إلى أى نقود فقد وجدت وظيفة مرتبها عشرة جنيهات سأرسل لك منها خمسة وارتاحى يا أمى أبقاك الله لى.

وتنبه على صوت مصطفى وهو يقول لجعفر :

- متى نبدأ فى عملية الانجليز ؟

وسمع جعفر يرد فى تأكيد :

- العملية جاهزة.. غدا سنبدأ.. اثنتا عشرة فرقة تم تجهيزها.. يجب أن نعتمد على أنفسنا.. لا حكومة ولا جيش ولا كلام فاضى.. إنها مسئوليتنا نحن.. سنجتمع غدا.

واشتعل انتباه فهمى.. إنها عملية لم يسمع عنها من قبل رغم اتصاله بجميع تكتلات الطلبة.. ربما تتم بتنظيم جديد لم يصل إليه بعد.. وجعفر يستمر فى سرد التفاصيل.. إنها عملية كبيرة تصل إلى داخل معسكرات الانجليز وقد تم كل شىء حتى تحديد أسماء قيادات الفرق.. والتسليح.. حتى التسليح

انتهوا منه.. إن مـرتضـى زينهم استطاع أن يجمع من الصـعيد مائة وخمـسين بندقية وثلاثين مسدسـا وعشرة صناديق من الذخيـرة والقنابل اليدوية.. وعـبدالله سلمان اتصـل بجمعـيات السطو على معسكرات الانجليـز واتفق معهم على امداده باثنى عشر مترليوز.

وقال عبدالرؤوف :

– أبى يحتـفظ فى العزبة بحوالى خـمسن بندقية.. قـيدوها لحسابى.

واستمـر الحديث إلى أن انتقل إلى موضـوع آخـر.. وعبدالله البواب جـاء بلفات الكفتة والـكباب.. وفهمى عـاد وأسند رأسه على الحائط ويمد أصابعه ويلتقط قطع الكفتة والكباب ويدسها فى فمـه بعد أن تمـر الجوزة به.. ويسـتمر فى خـطابه لأمه.. يا أمى العزيزة.. أرى أن تبـيعى فدانا حتى توفـرى عن نفسك التـعب واطلبى من الله أن أشـتـرى لك قـريبـا عشـرة أفـدنة.. دعواتك هى سندى يا أمى وستتغير الأحوال بإذن الله.

وانتبـه عبـدالرؤوف إلى جعـفر يهم بالانصـراف ولحق به الباقون، وقال له عبدالرؤوف وهو يودعه :

– اتكل على عبدالله البواب.

وهز رأسه فى صمت.

وألقى نفســه على السرير السفرى الضـيق وفى لحظة كان يغط فى أعمق نومة جربها فى حياته.

واستيقظ مذعورا.

يا خبر.

الساعـة وصلت إلى العاشرة صـباحا.. ليـست هذه عادته.. واغتسل بسـرعة ولبس قميصه المكرمش وحلتـه طويلة العمر وحذاءه الذى تلمع شـقوقه، ومـد يده والتقط قطعة من الكفـتة

كانت فى بقـايا طبق من أطباق الأمس، وهو يحاول أن يتـذكر كل شىء.. إن كل ما يـتذكره هو عـملية الانجليـز.. وجرى إلى الكلية يبـحث عن عبدالـعزيز جعـفر.. الرجل الثانى فى زعـامة الطلبة.. ولم يجد جعفـر.. وبدأ يجرى وراء الطلبة الذين يعرف أنهم من أصدقاء جعـفر ويحاول أن يصل منهم إلى شىء دون أن يصـارح بأنه يعرف كل شىء، ولكن لا أحد يقـول له شيئا.. بل لا أحد يبدو عليه أنه مهتم بشىء جديد.. إلى أن وجد جعفر فى آخر النهار وانطلق إليه يسأله :

- ماذا حدث اليوم ؟

وقال جعفر فى دهشة :

- ماذا حدث فى ماذا ؟

وقال فهمى فى حماس :

- عملية الانجليز.

وقال جعفر وهو يبتسم فىْ زهق كأنه يتحمل مجنونا :

- انجليز إيه يا فهمى.

وقال فهمى :

- العملية التى حدثتنا عنها فى الليل.

ونظر إليه فهمى فى دهشة ثم انطلق بقهقهة وقال :

- آه.. ذكرتنى.. انتظر حتى تجتمع الشلة ونكمل الحكاية.

حكاية.. هل كانت مجـرد حكاية.. حدوتة.. ربما كان جـعفر لا يريد أن يشـركـه فى العـمليـة ويتـهـرب منه.. حكاية.. كل مـا سمـعه حكاية.. لا يمكـن.. لقد كـان يحدد كل شىء حـتى بالأسماء.

وعاد إلى البيت وهو تائه مغـتاظ من حيرته.. ودخل الصالة العربـية وتمدد على الـوسادة التى اختـارها لنفســه ليلة أمس ووجـد سـيـجـارة ملغـمـة.. إنه يذكـر أن فـاروق كـان يلغم

السجائر.. يلغمها بالحشيش.. كان حريضا على أن يأخذ معه الزاد والزواد قبل أن ينصرف.. لعله نسى هذه السيجارة.. وأشعلها فهمى وشد منها نفسا.. إنها ملغمة لغما ثقيلا.. وقد كتب خطابا لأمه.. إنه يذكر أنه كتب خطابا لأمه.. لا .. لم يكتب. كان يحلم بأنه يكتب.. يجب أن يكتب خطابا لأمه.. أمى العزيزة.. آسف لأنى تأخرت فى الكتابة إليك و.. وسمع جرس الباب يرن وقام ليفتح.

إنه مدحت نور الدين صديق عبدالرؤوف ومعه امرأة.. وهو ليس من الشلة.. إنه طالب فى كلية الهندسة وهو ابن أخت رئيس الوزراء.. هذه المرأة التى معه.. لا يمكن أن يسمع فهمى بهذه القذارات فى البيت الذى أصبح يعيش فيه.

ودخل مدحت وأدخل معه المرأة بلا استئذان وهو يقول :

– اتصلت بعبد الرؤوف لآخذ منه المفتاح فقال لى إنك هنا.. أصبحت أنت المفتاح يا فهمى.. مفتاح السعادة.

وحاول مدحت أن يشد المرأة معه إلى الصالة العربية فأمسك به فهمى وقال وهو يجذبه إلى حجرة المائدة :

– لنجلس هنا أفضل.

ونظر إليه مدحت فى دهشة ساخرة وقال :

– كما تريد يا فهمى.. إننا فى ضيافتك.

وجلس معهما حول المائدة فوق المقاعد الهزيلة المتآكلة.. وعاد مدحت يقول :

– ربما ضايقناك.. عطلناك عن المذاكرة.. عبدالرؤوف يقول دائما إنك مدمن مذاكرة.

وقال فهمى فى تأفف :

– هذا بيت عبدالرؤوف.. وأنت ضيف عبد الرؤوف.. أهلا بك.

وقال مدحت مبتسما :

– لا تقل هذا.. إنى ضيفك يا فهمى.. وحتى أثقل عليك بضيافتى فإنى أطلب فنجان قهوة.. أطلبها منك لا من عبدالرؤوف.. والمرأة صامتة مستسلمة كأنها فى انتظار استدعائها للعمل.. وفهمى ينقل نظراته بينها وبين مدحت.

ثم قام ودخل المطبخ ليعد القهوة وهو يقول :

– فنجان قهوة وبس لأنى فعلا مدمن مذاكرة.

وأحس وهو فى المطبخ بشىء يتحرك وكذب أذنيه ولكنه عندما عاد يحمل صينية القهوة لم يجد مدحت ولا المرأة ووجد باب الحجرة التى تضم السرير العريض مغلقا.. وفهم وثار وألقى بصينية القهوة وما عليها على الأرض وهم أن يهجم على الباب ويحطمه ويلقى بمدحت وبالمرأة من الشباك حتى لو وجدهما عاريين. ولكنه توقف.. وشد على أعصابه كأنه يمزقها قبل أن تمزقه.. إنه ليس فى بيته.. إنه فى بيت عبدالرؤوف.. وهذا هو ما يحدث فى بيت عبدالرؤوف ولو كان هو هنا لترك مدحت والمرأة يمارسان ما يمارسانه وربما شاركهما الممارسة.. ولكن هو.. كل هذا ليس من طبيعته ولا من شخصيته التى ورثها عن أمه.. إنه حتى الآن ورغم أنه وصل إلى الثانية والعشرين من عمره ليس فى حياته أى امرأة.. لم يلمس جسد امرأة حتى ولو بأصابع يديه.. إنه بكر.. ولم يكن يتعمد أن يحتفظ ببكارته ولكن كانت هذه فى طبيعته.. وربما كانت قسوة الحياة عليه قد ألهته عن أن يبحث عن نفسه كرجل فى حاجة إلى امرأة.. ولكن الآن.. وهو فى بيت عبدالرؤوف.. إنه لو احتفظ ببكارته فسيأخذونه على أنه مجرد شاهد متعة.. ربما قواد.. أو يأخذونه على أنه خيبة.. إن شخصيته الجديدة فى بيت عبدالرؤوف التى فرضت عليه أن

يتعاطى الحشيش حتى لا يكون مجرد خادم فى غرزة، تفرض عليه أيضا أن يبحث عن امرأة حتى لا يؤخذ على أنه شاهد متعة أو قواد.

وهم أن يخرج من الشقة هربا من انفعاله أمام الوقوف أمام الباب المغلق.. وتذكر أن السيجارة الملغمة لا يزال فيها بضعة أنفاس فأخذها بين أصابعه وخرج يجرى فى الشارع.

إن حياته ليس فيها نساء ولا حتى بنات ولكن هناك امرأة كانت قريبة منه فى الجيزة.. سنية.. لقد كانت تطاردة دائما.. وكانت كلما صادفته تتنهد قائلة :

- امتى بأه يا سى فهمى.

لقد حان الوقت يا سنية.. فهمى فى طريقه إليك.. وهو يعرف أنها امرأة محترفة.. كل الحى كان يعرف عنها ما يعرفه.. وهو حى أناس طيبين يرحمون ويعذرون.. وكانوا يعذرون سنية.

وذهب إلى هناك، ودار يبحث عنها.. إن الوقت مساء.. ربما كانت فى نوبة عمل ولن يجدها.. ولكنه وجدها فى شارع فوانيس النور.. وقال وهو لا ينظر إليها.. تعالى يا بت.

وأخذها إلى الشقة وكل ما يتمناه أن يجد مدحت نور الدين والمرأة التى جاء بها لا يزالان حيث تركهما.. إنه يريد أن يثبت له أنه لا فرق بينهما.. كلاهما يزاول ممارسة النساء.. ولم يحاول يومها أن يقارن بين المرأة التى جاء بها مدحت والمرأة التى جاء بها هو.. كلتاهما من نوع واحد حتى لو اختلفت الطبقات.

ولم يجد مدحت ولا المرأة فى الشقة.

وانهار إحساسه كله مرة واحدة.. وسقط على مقعد كأنه يلهث.. ونظر إلى سنية وهو حائر ماذا يفعل بها، ثم قال فى

لهجة عمدة كفر حتاتة :

- ابحثى يا بت عن المكنسة واكنسى الغرفة.

وقالت سنية وهى فرحة بوجودها معه :

- حاضر يا سى فهمى.

ولكنه لم يتركها تتم كنس الغرفة.. أخرج من جيبه عشرة قروش ونظر إلى القروش فى حسرة ثم أعطاها لسنية وطلب منها أن تتركه وتخرج.

وقالت سنية فى توسل :

- أنا تحت أمرك يا سى فهمى.. أى وقت وأى حاجة.

وقال فهمى وكأنه يهم أن يبكى :

- مع السلامة يا سنية.

ثم قام يبحث عن سيجارة أخرى ربما تكون قد بقيت من ليلة أمس .. لقد كتب خطابا لأمه.. إنه متأكد أنه كتب خطابا لأمه.. لا.. لم يكتب.. قطعا لم يكتب ويجب أن يكتب. عزيزتى أمى.

٢

لم يكن قد مضى أكثر من أسبوع عندما قرر فهمى عبدالهادى أن يحدد موقفه من الحشيش.. وكان يجب أن يكتشف أولا ماذا يفعل الحشيش به.. وقد اكتشف أنه ينقله إلى نوع من أحلام اليقظة.. إنه يحلم أنه كتب خطابا لأمه ويحلم أنه استذكر دروسه ويحلم أنه سعيد.. وتنقله الجوزة لكى يعيش هذه الأحلام كأنها واقع كامل.. كلهم هكذا.. يعيشون أحلام اليقظة.. أحلام الحشيش.. وعندما كان عبدالعزيز جعفر الذى يعتبر أحد قادة الحركة الطلابية يتحدث عن خطة الهجوم على معسكرات الانجليز كان يحلم.. ونسى حلمه فى صباح اليوم التالى.

هناك شىء آخر يسببه له الحشيش.. إن كيانه كله ينقلب إلى مجموعة من الخلايا الكسولة البطيئة النائمة.. وهذا الكسل يجعله يتخيل كل شىء وكأنه بعيد.. بعيد جدا.. وكل شىء كأنه صعب.. صعب جدا.. إنه يتصور كأن المسافة بين باب الصالة التى يحششون فيها وباب المطبخ كأنها مسافة طويلة تحسب بالكيلومترات، ولذلك يؤجل تحركه نحو المطبخ ليعود بكوب من الماء أو بحفنة من الفحم أو بطعام العشاء.. ويؤجل.. ويؤجل.. حتى ينام دون أن يتحرك.

وهم يقولون إن الحشيش يفتح النفس ويدفعك لأن تأكل

ضعف ما تعودته.. أبدا.. إن كل ما يحدث هو تكاسل وتباطؤ عملية المضغ.. إن ما تمضغه فى دقيقة تمضغه بعد الحشيش فى عشر دقائق.. وقد قضى فهمى ساعتين وهو يأكل واعتقد أنه أكل كل ما فى البيت ولكنه عندما حسب الحسبة فى صباح اليوم التالى اكتشف أنه لم يأكل أكثر من عادته وكل ما هناك أن ما يأكله فى ربع ساعة أكله فى ساعتين.. إن فكيه اللذين يحملان أسنانه يصابان بالكسل والاسترخاء فيستهلكان أضعاف الوقت.. تماما كالفرق بين السيارة التى تسير بالموتور والسيارة التى تسير بزق اليد.. إن الحشيش يوقف موتورات الإنسان ليعيش بزق اليد.

وهو لا ينسى زميله فاروق عندما تقرر تشطيب الغرزة والانصراف كل إلى بيته.. وإذا بفاروق يصيح وهو جالس فوق الوسادة الملقاة على الأرض.. ساقى يا جماعة.. أين ساقى.. إنى لا أجد ساقى ولا قدمى.. ابحثوا معى.. لا أستطيع أن أخرج بساق واحدة.. وكان فاروق يتكلم بلهجة جادة والذين معه يبدو كأنهم يصدقونه.. وكل ما هناك أن بئر الكسل الذى ألقاه فيها الحشيش جعلته يتخيل أنه فقد ساقه حتى يقنع نفسه بأنه لا يستطيع أن يتحرك، والذين حوله وجدوا هم أيضا حجة تعينهم على ضياع مزيد من الوقت فصدقوه، إلى أن قال له فهمى.. ساقك تحتك يا فاروق.. وشدوا له ساقه التى كان يثنيها تحته بين ضحكات صارخة.

حتى ضحكات الحشيش.. إنها حالة عصبية أكثر منها انطلاقا طبيعيا.. إن الحشاش عندما يبدأ فى الضحك ينسى أن يتوقف عنه، ويصبح كأنه حنفية فقدت صمامها فانطلق منها الماء بلا توقف.

إن فهمـى لا يستطيع أن يتحمل كل ذلك.. إن الحـشيش هو متعة الأغنياء.. ينقلهم ليعيـشوا أحلام اليقظة.. ينسيهم الواقع.. وهو ليس غنيـا.. إنه فـقـير.. ولا يريـد أن ينسى فقـره حـتى لا ينسى أن يستـعد للأمـتحان، وحـتى لا ينسى تدبير حـياته التى أصبح يعيشهـا يوما بيوم وحتى لا ينسى أن يكتب خطابا لأمه.

يجب أن يحرم على نفسه الحشيش.

إنه لا يزال أقـوى من الحشـيش.. لم يدمنه بعـد.. وهو فى الواقع لا يتـذوقه وصـدره يضـيق به ويستـطيع ببسـاطة أن يستغنى عنه.. وليس معنى هذا أن يتـرك شقة الزمالك ويعيش بعيدا عن الغـرزة.. مستحيل.. ليـس له مكان آخر ولم يعد الآن يستطيع الاستغناء عن صديقه عبدالرؤوف صاحب الغرزة.. بل لا يستطيع الاسـتغناء عن مجتـمع الغرزة نفسه.. إنه مـجتمع جـديد عليـه ولم يكن يتـصـور أنه مـجـتـمع يجـمع كل هذه الشخصـيات.. وليلة أمس جاء إلى الغرزة الدكتور عـبدالخالق أستـاذ القانـون الدولى بالكلية.. أسـتاذهم.. وليلة قـبلهـا جاء شريف مرتضى ابن عم وزيـر الداخلية.. إن شـخصـيـة صديقه عـبدالرؤوف كـأحد أبناء العـائلات الغنيـة تجذب إلى الغـرزة مجـتمـعا راقيـا يهم فهـمى أن يعيش فـيه وربمـا استطاع أن يستفيد منه.

كيف يعيش فهمى فى هذا المـجتمع دون أن يحشش.. ربما كـان الآن فى أشـد الحاجـة إلى اسـتـعادة شـخـصـية أمـه.. الشخصية التى تكسب الناس بتـقديم الخدمات.. وهو يستطيع أن يجيد خدمة الحشيش وخدمة الحشاشين دون أن يحشش.

وليلتهـا بذل كل جهده فى خـدمة الجلسة، وكان قـد عرف

معظم أسرار الحشيش بل وعرف أسلوب كل فرد من أفراد الشلة في شد النفس وفي نوع النفس الذى يشده، وارتاحوا كلهم لسيطرة فهمي على الجلسة وتولى إدارة الجوزة، ولكن صديقه عبدالرؤوف لاحظ أنه يتخطى نفسه بالجوزة، وسأله في براءة :

– حارم نفسك من الجوزة ليه يا فهمي.

وقال فهمي ضاحكاً :

– هي اللى بتتقل على يا رؤوف فاستغنيت عنها.. مسألة كرامة.

وتعودوا بعد ذلك ألا يلحوا عليه بأن يشاركهم التدخين، بل إنه كان يلازمهم دون أن يبدو عليه أنه ممتنع عن التدخين.. كان بذكائه وحيويته يشغلهم عن الإحساس بأنه ليس منهم.. ليس حشاشا.. لم يخطىء إلا مرة واحدة، عندما ضاق بتكاثف الدخان داخل الغرفة ففتح الشباك ليريح صدره، وصاح عبدالعزيز جعفر:

– مين اللى عايز يطير النعمة من حولنا.

وقال فهمي بسرعة :

– أصل نفسين وقعوا من الشباك وطيت أجيبهم.

وضحكوا وأغلق فهمي الشباك.. ومن يومها أصبح حريصا على أن يحتفظ بدخان الحشيش داخل الغرزة ولا يحاول أن يطرده من الشباك إلى أن تعود عليه ولم يعد صدره يضيق به.

ولكن التطور الذى حدث لفهمي في دنيا الحشيش حدث وهو خارج مع عبدالرؤوف من الجامعة ذات يوم، جالسا بجانبه في سيارته وقال عبدالرؤوف :

– تعال نشترى قرشين.

وكان فهمى يعلم أن القرش هو وزن قطعة الحشيش التى تباع ملفوفة فى ورق سوليفان.. قرش.. نصف قرش.. ربع قرش.. حسب الطلب.. ولكنه لم يكن يعرف من أين يشتريه زملاؤه.. كان لا يزال دخيلا عليهم إلى أن صحبه عبدالرؤوف ووقف بسيارته أمام مقهى فى شارع عماد الدين واقترب منه رجل يرتدى جلبابا ويبدو كأنه حارس السيارات، وقال فى ترحاب كبير :

– أهلا عبدالرؤوف بيه.. فى خدمتك.. بختك من السما.. اليوم آخر صهللة.

وقال عبدالرؤوف دون أن يبدو عليه التأثر :

– كلامك كتير يا أبو المعاطى.. الحتة الجمعة اللى فاتت كانت مايصة وقليلة الأصل.. لولا إن إحنا متربيين على ايديك ما كنت جيت لك.. شوف لنا قرشين.

وقال أبو المعاطى وهو يمد يده فى جيبه ويخرج لفافتين من ورق السوليفان :

– طب جرب دول وحاسب على نفسك وأنت معاهم.. عيب يا عبدالرؤوف بيه ده إنت بالنسبة لى حاجة تانية.

وقال عبدالرؤوف وهو يمد يده ويخرج حافظة نقوده :

– هل معك سجائر.

وقال أبو المعاطى :

– موجود.

وقال عبدالرؤوف :

– طلع علبتين تقال.. تقال قوى.

وابتعد أبو المعاطى واختفى برهة ثم عاد يحمل علبتى سجائر جولدن فلاك، وأخذهما منه عبدالرؤوف قائلا :

– ما بلاش الدخان الانجليزى ده.. الانجليـز مالهمش دعوة بالحاجات دى.

– وقال أبو المعاطى :

– بس جرب يا سى عبدالرؤوف بيه.. ده إحنا بتوع المزاج.

وشد عبدالرؤوف ورقة من أوراق الخـمسة جنيهات أعطاها «لأبو المعاطى»، وألقى عليه كلمة، ثم انطلق بسيارته.. وصورة الورقة ذات الخمـسة جنيهات ملتصـقة بعينى فهمى.. خـمسة جنيهات.. إن كل مـا فى جيبه اليوم خمسـة قروش.. وقد اتفق مع جاره القديم محمد حسنين على أن يعطى درسا لابنه نظير خـمسـين قـرشا فى الشـهر وهـو لا يزال فى أوائل الشهـر.. ومضطر أن يعيـش فى شقة فى الزمالك كالقـط يأكل فضلات الطعـام، وأحيانا يطـلب من عبدالله الـبواب أن يشـترى له طبق فول أو قطـعة من الصـابون ثم يتركـه يحاسب عـبدالرؤوف.. وهو لم يطلب مـن عبـدالرؤوف نقـودا أبدا حـتى ولا بحـجـة الاقتـراض إنما يتـرك له أحيانا قـروشا لتـغطية بعض نفـقات البـيت.. لم يعطه أبدا خـمـسـة جـنيـهـات.. تـرى كم يربح أبو المـعـاطى من هذه الـجنيـهـات الخـمـسـة التى باع بهـا الحشيش.. جنيها وربما اثنين.. يجب أن يدرس الموضوع.. إنه طريق سـهل للوصـول إلى الأرباح أسـهل وأضـمن من إعطاء الدروس الخصوصيـة لابن جاره القديم.. وهو أحق بهذا الربح من «أبو المعـاطى».. يتاجـر فى الحشيش .. لم لا.. الـعالم كله حشيش، وهذه القـوانين التى تحرم الاتجار بالحـشيش ليست سوى برقع اجتماعى كالبراقع التى تضعها النساء لا لحرصهن على العـفـة أو لعـدم إثـارة الرجـال إنمـا فـقط ليـزددن دلالا وخلاعة.. إن المختفى أغلى من المفضوح.

وكان يتناول الغداء فى بيت عبدالرؤوف عندما قال له :

– القعدة الليلة حاتكبر.. ولازم أفوت على «أبو معاطى».

وقال فهمى فى بساطة :

– خليك أنت.. وأفوت عليه وأنا فى طريقى إلى الزمالك.

ووافق عبدالرؤوف وأعطاه ثمانية جنيهات ليشترى بها أربعة قروش.. القرش بجنيهين.

وقال فهمى فى هدوء :

– والسجائر.

وقال رؤوف :

– لا.. دعنا نترك كل واحد من الشلة يأتى معه بسجائره.. دول ما بيرحموش.

وأخذ فهمى الجنيهات الثمانية فى جيبه.. منذ سنوات لم يحمل فى جيبه كل هذا المبلغ.. وسار فى طريقه وهو يحس كأنه ازداد وسامة حتى لو لم يملك هذه الجنيهات.. إنه قوى قوة الرجل الذى يقتل لحساب غيره، وهذه الجنيهات هى جنيهات غيره ويشترى لحساب غيره.. ووصل إلى المقهى فى شارع عماد الدين وبحث عن «أبو المعاطى» إلى أن وجده :

– فاكرنى يا معلم..

وبحلق أبو المعاطى فى وجهه كأنه يشك فيه ثم قال فى ارتياح بعد أن تذكره :

ليست غريبة.. رأيتك.. كنت مع عبدالرؤوف بيه.

وقال فهمى :

– هو الذى أرسلنى إليك.. فى حاجة إلى أربعة قروش.

وقال أبو المعاطى :

– ليست عادته.. دائما يأتينى بنفسه.

وقال فهمى :

- أنا وهو واحد.

وعاد أبو المعاطى يبحلق فى وجه فهمى ثم تنهد كأنه يتكل على الله، ومد يده فى جيبه وأخرج أربع لفافات صغيرة من ورق السوليفان وأخفاها فى يد فهمى :

- يبقوا كام يا معلم.

ونظر إليه أبو المعاطى كأنه يعاين مظهره ولوى شفتيه اشفاقا وهو يرى حلته القديمة وقميصه المكرمش.. وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة كأنه يريد أن يكسبه :

- كم سلمك عبدالرؤوف بيه :

وقال فهمى وهو يتعمد البراءة والسذاجة :

- ثمانية جنيهات.

وقال أبو المعاطى :

- من أجل خاطرك يكفى سبعة ونصف.. معرفة جديدة.. دايمة بإذن الله.

وفهم فهمى ما يقصده أبو المعاطى.. إنه يدفع له الأتعاب.. يرشوه وهو فعلا يريد هذه الرشوة.. خمسون قرشا أتعاب شهر تدريس لابن الجيران.. إنها ليست رشوة.. إنها سمسرة.. مشاركة قانونية فى الربح.. ولكن من أدراه بنيات «أبو المعاطى».. ربما فضحة أمام عبدالرؤوف.. ربما حاول استخدامه بعد ذلك فى عمليات لا يريدها.. إنه لا يقبل أن يكون فى خدمة أبو المعاطى.. وقال فى لهجة متعالية :

- دى فلوس أخى عبدالرؤوف يا معلم.. ما تأخذه فهو حقك وما لا تأخذه يعود إلى عبد الرؤوف.

ونظر إليه أبو المعاطى فى دهشة كأنه أخطأ تقديره وقال :

- يبقى آخذ الثمانية جنيهات.. عبدالرؤوف بيه مش محتاج.. كان نفسى أخدمك.

ثم وضع يده فى جيبه وأخرج لفافة أصغر قائلا :

- هذه لك قزقزها فى الطريق أو قل لعبدالرؤوف بيه إنها هدية منى أيامنا كثيرة يا سى .. يا سى.

وقال فهمى :

- اسمى فهمى.. مع السلامة يا معلم.

وسار وهو يخطط لنفسه الوسيلة التى يستطيع أن يجعل بها من نفسه تاجر مخدرات.. إنه يرفض أن يشترك مع «أبو المعاطى» لأنه يتعامل مع عبدالرؤوف ومع بقية الشلة.. إنه فى حاجة لأن يتعامل مع تاجر لا يعرفه أحد من أصدقائه، ولا علاقة له إلا به هو شخصيا.. وهو يذكر للمعلم محروس عبدربه صاحب محل الفول والطعمية فى الجيزة.. لقد كان المعلم محروس يتولى أمره قبل أن ينتقل إلى الزمالك.. كان يمده بالفول والطعمية، ويتركه يدفع عندما يستطيع أن يدفع.. وهو يعلم أن محروس يبيع لزبائنه الحشيش بنفس البساطة والصراحة التى يبيع بها الفول والطعمية.. أضمن طريق هو أن يبدأ بالاعتماد على محروس.

وفى المساء عندما التقى بعبدالرؤوف سلمه القرشين ومعهما الربع قرش قائلا :

- الربع ده هدية من «أبو المعاطى».

وصاح رؤوف :

- هدية.. وده معقول.. ده راجل حرامى ونصاب وابن ستين فى سبعين.

وقال فهمى ضاحكا :

- يمكن كان عايزني أسرق معاه وقت لى الربع ده.

وقال فهمي مرحا :

- خلاص.. من هنا ورايح أنت المسئول عن التموين.. وخللي «أبو المعاطي» يفوت لك وأنت تفوت لنا.

وقال فهمي متأففا :

- لا يا عم.. ماليش دعوة «بأبو المعاطي».. روح خليه يفوت لك أنت.

وبعد أيام ذهب إلى المعلم محروس عبدربه واستقبله محروس مرحبا مهللا :

- أهلا سي فهمي.. يعني ما تغيرتش يا خويا.. سمعنا إنك بقيت من أهل الزمالك.. مش باين عليك.. أوعى تكون رجعت الأهلي تاني.

وضحك فهمي مع ضحكات المعلم محروس، واستعادا معا الأيام التي مضت وأخبار أهل الحي، ثم قال فهمي وهو يقرب كرسيه من كرسي المعلم :

- كنت عايزك يا معلم.

وقال محروس :

- خير يا ابني.. كلي لك.. ده أنت ابننا.

وقال فهمي :

- عايز حتة غبارة.. مش ليه.. أنا لا أتعاطاه.. إنما محتاج لها.

وقال المعلم محروس :

- غبارة مرة واحدة.

وقال فهمي :

- ما أنا حاآخد معاها حتتين عادي.

ونظر إليه محروس كأنه فهمه وقال وصوته أكثر جدية :

- أنت بقيت حريف ولا إيه.. ما كنت بعيد.. إيه اللى دخلك الدنيا.. يا دنيا.

وقال فهمى :

- محتاج يا معلم.

وقال محروس كأنه يشفق عليه :

- أنا تحت أمرك يا سى فهمى.. فوت علىّ بكره.

وقال فهمى :

- بس تستنى على شوية.. يعنى أنت عارف.

وقال محروس :

- هو أنت لسه فى أيام زمان.. ياما استنيتك فى الفول والطعمية.. خلاص يا سى فهمى.. حاستنى عليك لغاية ماربنا يفرجها.

وكان فهمى قد درس الخطة كلها دراسة كاملة.. إن الغبارة هى أرقى وأغلى وأندر أنواع الحشيش، وهو يريد أن يغرى بها صديقه عبدالرؤوف حتى يعتمد على شراء الحشيش.. وهو يعلم أنه لو بدأت العملية فإنه يستطيع أن يستغلها لمصلحته.. يقدم الغبارة فى أول طوفة بالجوزة.. ثم بعد ذلك يبدأ فى خلطها بالأصناف العادية الرخيصة.. والمسطول لا يحس بنوع الحشيش بعد الطوفة الأولى والثانية.. وهو بذلك يكسب الفرق بين ثمن الغبارة والثمن العادى.. إنها نفس مهنة الخمار عندما يبدأ فى غش الخمر بعد أن ينتهى الزبون من الكأس الأولى أو الثانية.

وقد أعطاه المعلم محروس فى اليوم التالى ما اتفقا عليه.. وجرى إلى صديقه عبدالرؤوف ولاقاه فى حرم الجامعة

وانزوى به هامسا :

- معاك عشرة جنيهات.

وقال عبدالرؤوف فى دهشة.. إنها المرة الأولى التى يفاجأ بفهمى يطلب منه مالا :

- خير يا فهمى.

وقال فهمى :

- هات بس.

وأعطاه عبدالرؤوف العشرة جنيهات، وأخرج فهمى لفافة الغبارة من جيبه وأعطاها له قائلا :

- تعرف دى إيه.

وشم عبدالرؤوف اللفافة ثم فتحها وتلمسها بأصبعه وأحس بلزوجة الزيت، وقال مبهورا :

- دى باين حتة حلوة.. دى إيه دى.

وقال فهمى :

- دى غبارة يا أستاذ.. دى الدستور بحاله.. خليها معاك لغاية ماأرجع لك.. صاحبها مستنينى.

وقال عبدالرؤوف :

- صاحبها مين ؟

وقال فهمى وهو يجرى :

- بعدين أقول لك.

تركه فهمى وهدأت أعصابه بعد أن ابتعد عنه، ودخل إلى مطعم المعلم محروس واختلى به ودفع له ستة جنيهات من العشرة كما كان قد اتفق معه، واحتفظ بالباقى لنفسه.. كسب أربعة جنيهات فى عملية واحدة لم تستغرق إلا يوما واحدا، قدر ما كانت تجمعه له أمه فى شهر.

وقال محروس فى دهشة :

– يعنى ما اتأخرتش.

وقال فهمى :

– عمرى ما أتاخر عليك يا معلم.

ونظر إليه المعلم محروس كأنه يشفق عليه وقال :

– دى شغلانة كبيرة يا سى فهمى.. خد بالك كويس.. وقال فهمى فى لهجة واثقة كأنه أصبح فعلا تاجرا للمخدرات :

– خليها على الله يا معلم.. هو أدرى باللى احنا فيه.

وفى طريقه إلى شقة الزمالك اشترى حذاء جديدا واحتفظ به فى قدميه وهو داخل المحل، وأخذ يقلب فى حذائه القديم وينظر إليه من خلال ابتسامة مسكينة كأنه يودع أياما مضت.. إنه حذاء مضى عليه ثلاث سنوات من عمر طالب فلاح كان يحاول أن يكون أقوى من الفقر.. وحمل الحذاء القديم وخرج به من الدكان ونادى صبيا من جامعى أعقاب السجائر، وأعطاه له قائلا :

– خذ يا واد الجزمة دى.. أمشى بيها فى الفقر لغاية ما توصل للشط.

والصبى لا يفهم شيئا، وخطف الحذاء القديم بنفس البرود الذى يخطف به أعقاب السجائر، وجرى من أمامه وفهمى يبتسم فى سعادة وهو يتتبعه بعينيه.. إنه يحس إحساسا جديدا.. يحس أنه انتصر على الفقر.. أصبح فى مستوى أصدقائه الأغنياء.. هذه الأربعة جنيهات التى كسبها بهذه البساطة أقنعته بأنه أصبح من رجال الأعمال.. وشد قامته الطويلة، ونفخ صدره العريض، وعاد إلى غرزة الزمالك.

وهللت الغرزة كلها تحية لأنفاس قطعة الحشيش الغبارة

التي يطوف بها عليهم فهمي.. وصاح عبدالرؤوف :

- ما قلتليش جبت الحتة دي منين.

وقال فهمي ضاحكا :

- ما أقدرش.. ده سر عائلي.

وصاح صديقه فاروق :

- اعتبرني نسيب العائلة.. وفوت.

ومن يومها تولى فهمي مسئولية تموين الغرزة، وتموين غرز أفراد الشلة أيضا، فكل منهم يعتبر نفسه غرزة قائمة بذاتها.. وكان لا يتعامل إلا مع المعلم محروس عبدربه، وكان يأخذ منه تحت الحساب ويحتفظ بما يأخذه في ركن سري من شقة الزمالك.. شقة عبدالرؤوف.. إذا حدث أي شيء لا سمح الله فالشقة شقة عبدالرؤوف، والبوليس لا يجرؤ عادة على كبس غرز أولاد الذوات، بل إنه كان يتعمد كلما طلب منه أحد من أفراد الشلة قرشا أو قرشين أن يجيبه :

- شوف رؤوف هو اللي معاه التموين كله.

وينتظر إلى أن يقول له رؤوف :

- ما تديله من المخزن يا فهمي.. ولاّ العيلة فلست.

وكان يأخذ الثمن باسم عبدالرؤوف على اعتبار أنها مصاريف تموين أو بدل فاقد.. كان حريصا دائما على أن يتصرف كصديق لرؤوف لا كتاجر حشيش.

وعندما عاد رؤوف يسأله عن المصدر الذي يشتري منه الحشيش قال له إنه التقى بأحد بلدياته من الشرقية، وعرف إنه يتاجر في الحشيش مع تاجر تجزئة في الجيزة اسمه محروس عبد ربه، وقد عرفه به وأوصاه عليه .

وقال فهمي ضاحكا :

- محروس بيدينى الغبارة قبل ليلة الحنة.
أى قبل أن يضيف إليها عجين الحنة.
وضحك عبدالرؤوف وازداد استسلاما لفهمى.
وقد وصلت أرباح فهمى من الحشيش حوالى عشرة جنيهات فى الشهر.. مبلغ كبير.. ولكنه حرص على أن يخفيه.. وظل حريصا على مظهره القديم.. لم يشتر بعد الحذاء الجديد سوى قميصين وبعض غيارات داخلية، ولم يشتر حلة جديدة رغم أن حلته تجعله يبدو كأنه يتحرك داخل قفص فراخ، إلى أن زار رؤوف فى بيته ليهنىء والده سليم باشا بعودته من رحلة فى الخارج فأهداه الوالد قطعة قماش انجليزى.. قائلا :
- أنا جبت حته لرؤوف وحتة لك يا فهمى علشان تبقوا زى بعض.. أنتم أصدقاء العمر.. والمهم أنكم تنجحوا مع بعض.
وتلقى فهمى الهدية فى فرح صاخب كأنه لم يكن يستطيع فعلا أن يشترى حلة جديدة، وتأثر الوالد بفرحة فهمى فقال لرؤوف :
- خذ فهمى للترزى بتاعنا يفصل له البدلة.
وقد أهداه رؤوف فوق ذلك قميصين ورباط عنق حتى يستكمل احتياجات الحلة الجديدة. وعندما ظهر بها فى الغرزة قال ضاحكا :
- يا جماعة إحنا لازم نفتح صندوق تبرعات .
وقال جعفر ضاحكا :
- لمين.
وقال فهمى مستمرا فى الضحك :
- لسليم باشا.. علشان يسافر كمان مرة ويرجع لى ببدلة تانية.

انتم عارفين الشتا داخل ومش عايزين نتعب الباشا كفاية عليه ثمن الحشيش.

وضحوا بالضحك.. وكان فهمي يتعمد أن يقول ذلك حتى يؤكد أنه لا يزال فقيرا، وحتى لا يفضحه ضميره.

ورغم ذلك لم يكتف ضمير فهمي بالعشرة جنيهات.. إنه يربحها مناصفة مع محروس عبدربه.. وكل قيمة محروس أنه يتعامل مع تاجر الجملة، لماذا لا يصل هو إلى تاجر الجملة مباشرة من فوق محروس.. ولكنه تردد طويلا.. إن محروس له فضل عليه منذ أن كان يقيم في حي الجيزة، وعدد أطباق الفول والطعمية التي لم يحاسبه عليها إلى اليوم تساوي أكثر من عشرة قروش حشيش.. يجب أن يكون بارا بالنعمة.. وأخيرا جرب أن يصارح محروس بأن أرباحه من عملية الحشيش لا تكفيه.. أنت عارف يا معلم إني ما أعرفش إلا شوية الأصدقاء دول.. سلطتهم متجبش أكثر من كده في الشهر.. والإنسان محتاج وأمي باعت الكام فدان.

ونظر إليه محروس طويلا كأنه يفهمه وقال :

– أنا مش محتاج لزباينك يا سي فهمي.. خليهم لك لوحدك.. حاديك بالسعر اللي تحت. ولاً أقول لك، ما أنت تعرف الحاج مصطفى عبداللطيف.. حاطمنه.. وأسيبك له.

والحاج مصطفى هو تاجر الجملة.

وبدأ فهمي يتعامل بالجملة مباشرة وارتفع ربحه إلى عشرين جنيها في الشهر.

إنه غني.

ولكنه لا يجد بعد ما يستطيع أن يفسر به مظهر الغنى الذي كشف عن غناه.. لا يستطيع أن يعتمد على الكذبة المعروفة

بأنه ورث فجأة إرثا لم يكن يحسب حسابه، والأفضل أن يبقى محتفظا بمظهره القديم.. الطالب الريفى الذى يكافح الفقر حتى يصل إلى العلم.. وهو يرسل إلى أمه وأخوته بضعة جنيهات قليلة حتى لا يثير أطماعهم فيه فيفاجأ بهم يطبقون على أنفاسه فى القاهرة، والباقى يضعه فى صناديق التوفير بالبريد.

وكل ما يعتز به هو أن الغرزة أصبحت تحت سيطرته.. هو السيد هنا وليس عبدالرؤوف.. هو الذى يحتفظ بالتموين، هو الذى يوزع المعلوم.. وقد فهم أسرار الحشيش إلى حد أنه يتحكم فى مصير كل جلسة.. إنه يستطيع أن يسطلهم فى ساعة.. فيستطيع أن يمد فى أجلهم إلى مطلع الفجر.. ويستطيع أن يوجه أحلام الحشيش.. أن يتولى توجيه موضوعات الجلسة بحيث يحلمون بالموضوع الذى يختاره لهم.. والحشيش يجعل من أهله مجتمعا غريبا يخاف فيه كل منهم من الآخر.

يخاف أن يفضحه زميله.. ولا شك أن كلهم يخافونه كما أنه يخافهم.. وربما استغل هذا الضعف.. لقد ادعى مرة أنه فى حاجة إلى اعطاء دروس خصوصية فحصل فى نفس الجلسة على ثلاث دعوات لدروس خصوصية.. للأخت الصغيرة والأخ الصغير والابن.. والدرس الواحد بخمسين قرشا، وقد كان وهو فى الجيزة يدرس الشهر كله بهذه الخمسين ولا يقبضها كاملة.

ولكن بقى شىء لا يستطيع أن يسيطر عليه.. استعمال بعض أفراد الشلة للشقة فى لقاءاتهم النسائية.. إن عبدالرؤوف نفسه لا يمر عليه أسبوع إلا ويدخل وفى يده امرأة.. وأحيانا

يشترك هؤلاء النسوة في جلسة الغرزة نفسها.. وهو لا يستطيع أن يكون مورد نساء لهم كما أصبح مورد حشيش.. ربما لو جاء بامرأة تقيم معه في الشقة لحرمت الشقة على باقي النساء.. وما دام عبدالرؤوف قد أعطاه حق الإقامة في الشقة فلا شك أنه يصبح من حقه أن يدعو امرأة لتقيم معه.

وأتى بسنية لتقيم في الشقة وسألها وهي واقفة أمامه تستجديه بعينيها :

– إنت متجوزة يا بت.

وقالت في استسلام :

– تحت أمرك يا سى فهمي.

وعاد يسألها :

– مخلفة.. عندك أولاد.

وقالت في صوتها الغنوج :

– تحت أمرك يا سى فهمي.

وصرخ في وجهها :

– إيه اللي تحت أمري.. أنت فاهمة إني حاتجوزك ولا حاخلف منك.. أنا عايزك هنا خدامة.. خدامة وبس.

وعادت سنية تقول في غنج :

– تحت أمرك يا سيدي.

وعندما جاء عبدالرؤوف قال له فهمي إن الشقة في حاجة إلى خادمة مقيمة وإنه لهذا جاء بسنية.. وقال عبدالرؤوف :

– ما عبدالله البواب كفاية.

وقال فهمي من خلال ابتسامة مزيفة :

– عبدالله كان كفاية لما كانت الشقة فاضية.. بس الشقة

دلوقت مش فاضية.. ولا أنا مش هنا.
وقال عبدالرؤوف :
– بس عبدالله يزعل.. وأنت عارف.. ده كاتم الأسرار.
وقال فهمى :
– سيب عبدالله لى.. أنا وهو حبايب من زمان.. ونظر رؤوف إلى سنية من بعيد وقال فى خبث :
– بس دى باين عليها.. يعنى.. مش بطالة.
وقال فهمى ضاحكا :
– قوم جرب يمكن تطلع على مقاسك.
وقام عبدالرؤوف، وفتح فهمى كتبه وبدأ يذاكر استعدادا لامتحان ليسانس الحقوق.

٣

استطاعت سنية أن تحمل عن فهمى ثلاثة أرباع مسئولية الغرزة وكأنها ولدت ونشأت فى غرزة.. إنها تعرف جميع أصول وتقاليد الحشيش وتحرص عليها، بل ربما استطاعت دون أن تعمد أن تدخل على الغرزة تقاليد جديدة لم يكن زبائنها أولاد الأغنياء يعرفونها.. والأهم من ذلك أنها استطاعت أن تفصل بين الغرزة وشقة العازب.. الغرزة غرزة لا يدخلها إلا الحشيش.

أما احتياجات العازب لاستجلاب النساء فيجب أن يكون لها مكان آخر.. يجب احترام الحشيش.. وكان مجرد وجود سنية فى شقة الزمالك قد بدأ يدفع بعض الأصدقاء على التردد فى اصطحاب النساء إليها، وإن كان بعضهم لا يزال يعطى لنفسه حق استعمال شقة رؤوف دون أن يعترف أنها أصبحت شقة فهمى.. وقد كان مدحت نور الدين هو أكثر أصدقاء رؤوف استغلالا لشقة العازب.. حتى بعدأن أصبحت سنية تقيم فيها.. كان يدخل كأنه صاحب حق ويجامل فهمى بكلمتين ويطلق ضحكة لسنية ثم يشد المرأة التى معه ويدخل بها إلى الغرفة التى تضم السرير الخشبى الواسع، وفهمى يكاد يلطم خديه

فى غيظ ويضطر أن يخرج من الشقة ويتخبط فى أى مكان حتى يهرب من إحساسه بهذا الوضع الذى يفرضه عليه مدحت.. ابن أخت رئيس الوزراء.

إلى أن جاء مدحت يوما ومعه امرأة كالعادة واستقبلته سنية وهى تفتعل الذعر والحيرة قائلة :

– يا خبر يا سى مدحت بيه.. اخوات سى فهمى جايين من البلد وسى فهمى ذهب إلى المحطة لاستقبالهم وزمانهم واصلين.

وقال مدحت ساخرا :

– من أمتى سى فهمى له إخوات.. خدى يا بت وبلاش نصب ووضع يده فى جيبه وأخرج جنيها أعطاه لها، وأخذت سنية الجنيه بلا كلمة شكر وقالت وهى تصده عن الوصول إلى غرفة السرير الواسع :

– علشان خاطرى يا سيدى.. دول فلاحين وربنا يستر.. أحسن تروح الشقة التانية.

وقال مدحت فى دهشة :

– من أمتى فيه شقة تانية.

وقالت سنية فى حماس يغريه :

– دى شقة هنا فى العمارة.. الدور اللى فوقنا.. دقيقة واحدة أجيب المفتاح من عم عبدالله البواب.

وجرت سنية وعادت قبل أن يصل مدحت إلى السرير الواسع وفى يدها مفتاح الشقة الأخرى.. ونظر إليها مدحت فى

شك ثم هز كتفيه بلا مبالاة قائلا :

- فرجينا يا ست سنية.

وسحبته هو والمرأة التى معه إلى شقة فى الدور الأعلى وفتحت له الباب قائلة :

- دى شقة فل.. شقة واحد خواجة مسافر.. وفيها بوتاجاز شغال.. وكاملة من كله.. والنبى أحسن من شقتنا.. بس ما تنساش عم عبدالله البواب.

ودخل مدحت والمرأة.

وكان عبدالله البواب قد استقبل وجود سنية فى تذمر.. إنها ستعتدى على رزقه.. ستغنى عنه رؤوف وفهمى.. لن يكون هو المسئول عن الشقة وعن الغرزة.. لقد استولى فهمى منذ جاء على نصف اختصاصاته ولا شك أن سنية ستستولى على النصف الباقى.. وبدأ فى الأيام الأولى يحاول أن يطردها وقال لفهمى كأنه يهدده :

- يا سى فهمى بصراحة ما يصحش أن الست تفضل معاك على طول.. السكان ابتدوا يتكلموا..

وقال فهمى وكأنه فهم ما يرمى إليه عبدالله :

- دى مش ست يا عبدالله.. دى خدامة.. وأنا سايبها علشان تساعدك.. ما كانش هاين على إنك تطلع تكنس كل يوم.. مش قيمتك الكنس والمسح.

وسكت عبدالله البواب، واستطاعت سنية بتوجيهات فهمى أن تكسبه إلى أن أصبحت تتولى قيادته بعد أن فتحت له طرقا ضاعف بها ما كان يكسبه من زبائن الغرزة.. وكانت هى التى

أقنعته بأن يخصص الشقة التى سافر ساكنها الأجنبى وتركها مفروشة لخدمة زبائن الغرزة.. يؤجرها لهم بالساعة دون أن يعلن الإيجار إنما هى فقط خدمة يقدمها لأصدقاء سى عبدالرؤوف.

وهكذا استطاعت سنية أو استطاع فهمى بوعى سنية أن يفصل بين الغرزة وشقة العازب.. الغرزة تستقبل الأصدقاء، أما شقة العازب فهى له هو وحده وصديقه عبدالرؤوف.

وقد استقبل الأصدقاء وجود سنية فى دهشة.. فهى لا يبدو عليها أنها خادمة.. شخصيتها صنف آخر غير شخصية الخادمات.. وهى تهتم بالاحتفاظ بالأصباغ على وجهها وتتقصع فى مشيتها ويبدو تقصعها كأنها لا تفتعله لتثير الرجال إنما هو من طبيعتها.. ولدت هكذا.. إحدى بنات طبقة المتقصعات.. وتخيل البعض أنها ربما كانت عشيقة فهمى.. وقد لا تكون فى مستوى النساء اللاتى يفخر الطلبة بعشقهن.. إنها تبدو أقرب إلى مستوى المحترفات.. ولكن فهمى نفسه فلاح فقير قد يفرح بأى امرأة لمجرد أنها من القاهرة.. وفهمى يتعمد أن ينفى شبهة أى علاقة بينه وبين سنية.. إنها خادمة.. ويعاملها كخادمة ويحرم عليها الجلوس بين الأصدقاء وزوار الغرزة.. وقد سألوه عنها وأجاب فى لهجة جادة :

– دى بنت كانت بتخدمنا فى الجيزة.. قلت أجيبها تخدمنا هنا.. شاطرة ونظيفة وتعودت على خدمة الطلبة.

وقال فاروق ضاحكا :

– ما دام اتعودت على الطلبة.. يبقى خلاص فرجت.

ولم يبادل فهمى الضحك وإنما زم شفتيه كأنه يرفض أن يعترف بأن سنية من هذا النوع الذى يفرج عن الطلبة.

وقد حاول أكثر من واحد من الأصدقاء استعمال سنية ولكنها كانت ترفضه فى رقة وخلاعة حتى لا تغضب من ترفضه.. كان لا يمكن أن تقبل شيئا إلا بموافقة فهمى وكانت تبلغه أولا بأول كل كلمة تلقى عليها وكل كلمة تسمعها ثم تنتظر الأوامر.. ولم يكن فهمى قد سمح لها إلا بالاستسلام لصديقه عبدالرؤوف إذا طلب منها شيئا.. وعبدالرؤوف لم يطلبها إلا مرة واحدة ثم عاد يعتمد على النساء اللاتى يأتى بهن.

وعبدالعزيز جعفر نائب زعيم الطلبة يلح عليها فى همسات عابرة ثم أصبح يلاحقها داخل المطبخ ويعود يلح عليها.. وهى تبلغ فهمى وفهمى حائر فى هذا الزعيم المفجوع الذى يستغل زعامته فى بيوت الناس ومع الخادمات.. ربما يحرم نفسه من بنات الجامعة حتى لا يفضح وحتى يحتفظ بمظهر الزعامة ثم يعوض هذا الحرمان بملاحقة الخادمات.. وأصدر فهمى أمره إلى سنية بالاستسلام لزعيم الطلبة.. لم يكن يريد أن يقدم له خدمة ولم يكن مشفقا عليه من حرمانه، ولكن كان يريد أن يذله بسره.. ومنذ أن دخل فهمى عالم الحشيش وجميع الأصدقاء ومنهم عبدالعزيز جعفر ازدادوا تقربا إليه بل احتراما له كأنه ارتفع إلى مستواهم وأصبح يستحق هذا الاحترام.. فإذا شاركهم أيضا فى حياتهم الجنسية فلا شك أنهم سيزدادون تقربا واحتراما له وسيقوى هو عليهم بأن يمسك بهم من نقاط الضعف فيهم.. الحشيش والنساء.

واخذت سنية زعيم الطلبة إلى شقة الدور العلوى بالاتفاق مع عبدالله البواب.. كانت التعليمات تفرض على سنية ألا تمارس الجنس داخل الشقة مع أى غريب مهما كان.. وأن تصر دائما على أن سى فهمى لا يعرف شيئا وأنه لو عرف لطردها من خدمة الغرزة.

والأستاذ الدكتور عبدالخالق أستاذ القانون الدولى أعجب فى احدى زياراته للغرزة بسنية وقال لها وهو ينزوى بها :

- ما تعرفيش بنت زيك كدة تشتغل عندى.. تشتغل ولو ليلة واحدة.

وقالت سنية فى لهجتها الغناجة :

- أعرف يا سيدى.. تحت أمرك يا سيدى.

وقال الدكتور عبدالخالق :

- ابقى ابعتيها لى.. ما أنا زى فهمى كده عايش لوحدى.. بس أعملى حسابك تكون بنت صغيرة يعنى زيك كدة.

وقالت سنية فى غنج :

- أنا عجزت خلاص يا سيدى.. وأنت م ينفعكش إلا الحتة الصغيرة.

وسمح فهمى بتلبية مطالب الدكتور عبدالخالق.. واتفقت سنية مع بنت من البنات وأرسلتها له فى بيته.. لقد ضمن فهمى النجاح فى القانون الدولى على الأقل فى امتحان الشفهى.

وأصبحت هذ هى مهمة سنية داخل الغرزة بجانب أعمال البيت.. والوحيد الذى لم يكن من مهمتها هو فهمى نفسه فهو

إلى الآن لم يقربها.. وقد حاولت معه كل ما أوحت إليها أنوثتها.. حاولت من بعيد فلم يكن لها حق الاقتراب منه ولو بلمسة.. وفى كل ليلة بعد أن تصبح معه وحدهما تتنهد قائلة :

- امتى بقى يا سى فهمى.

فيصرخ فيها :

- اجرى على المطبخ يابت بلاش قرف.

وهكذا فهمى منذ كان طالبا.. يحمل فى جيبه علبة سجائر ولا يدخنها إنما يقدمها للأصدقاء.

ويشترى الحشيش ولا يحشش إنما يقدمه للأصدقاء.

وتحت أمره امرأة لا يستعملها إنما يتركها للأصدقاء.

وهو دائما محتفظ بشخصية واحدة لا تتغير.. الشخصية التى ورثها عن أمه.. الشخصية التى تقدم الخدمات مع الاعتزاز بكرامتها.. خدمات فى مقابل خدمات.. أمه كانت تساعد زوجة العمدة ونساء القرية فى كل ما تريده النساء.. تحقيق الزيجات.. وإعداد الأفران.. وأعمال البلانة والمولدة.. و.. وتتلقى نظير ذلك مقابلا من خدمات كمجاملتها فى بيع المحصول، وفى تزويدها بالسماد، وفى صيانة أولادها.. إنها احتياجات متبادلة.. وهو الآن يعيش فى مجتمع تقوم احتياجاته على الحشيش والجنس.. حتى لو كانت هذه الاحتياجات محرمة بحكم القانون فهى ليست محرمة كواقع اجتماعى.. إنه يعيش الواقع.. لا أكثر.. ليس خاطئا ولا كافرا ولا محرما ولا قوادا.. إنه فقط يعيش الواقع.. وهو بهذه الفلسفة لا يزال معتزا بكل شخصيته وبكل مظاهر هذا

الاعتزاز.. إنه شـاب يعمل ويبنى مستـقبله.. يعمل فى مـجتمع الجامـعة.. ويعمل فى مـجتمع الحشـيش.. ويعمل فى مجـتمع الجنس.. وأبرز مـا فى هذا الاعتـزاز هو اعتزازه بذكـائه.. هذا الذكـاء الفـلاحى الذى استـطاع أن يعـايش صـاحب الأرض والعمدة والمأمور والانجليز والملك.. و.. و.. عايشـهم عبر آلاف السنين.. وكلهم ضاعوا وهو الذى يبقى.

ونـجح فهمى وحصل على ليسانس الحقوق.

وسقط صـديقه غـبدالرؤوف.. لا يهم.. إنه ليس فى حـاجة إلى النجاح.

وأصـبح فهـمى بعد أن تخـرج يحس بحـرج شديد عندمـا يذهب إلى المعلم فى الباطنية ليـعود بالحشيش.. ليس هذا من قيـمته ولا من قيـمة التجار المـحترمـين.. إن التاجر المحـترم لا يحمل الحشيش فى جيـبه أبدا.. إلى أن ذهب يوما إلى قريته كفر حتاتة.. كانت أمه قد ماتت وعرف بعد موتها أنها قد باعت فدانا من الأفـدنة الثلاثة التى ورثتهـا من العائلة.. ربما باعـته نظير الجنيهات الخمسـة التى كانت ترسلها إليه كل شهر وهو طالب فى الجامـعة، وكان قـد تنازل عن الفدانين الباقـيين إلى إخوته.. تركـهما لأخـيه الأصغـر يفعل بهـما ما يشـاء.. وكان يرسل لإخوتـه البنات معونات من جـيبـه الخاص كلمـا التقى بأحـد من أهل القـرية فى القـاهرة.. وكان يذهب بنـفسـه إلى هناك.. مـرة أو مرتين فى العـام ليقـضى ليلة واحدة.. مـجرد وحـشة كـانت تسـيطر عليـه نحـو أمـه التى لم يبق منهـا إلا «قبرها» وفى إحدى هذه الزيارات أخـذ يحلق فى وجه عوض عبـدالموجـود إنه أحد شـبان القرية ومـعروف بينهم بـالذكاء

واستطاع أن يعلم نفسه القراءة والكتابة، وكان يعمل فلاحا ولكنه كان يختفى فى البندر أحيانا ويعمل هناك أياما ثم يعود إلى القرية ليفلح الأرض من جديد.. إنه فى حاجة إلى عوض عبدالموجود فى القاهرة.. إنه يستطيع أن يعتمد عليه فى عملية الحشيش.

وأخذه معه إلى القاهرة ليقيم معه فى نفس الشقة.. وعندما تساءل عبدالرؤوف قال له فهمى : إنه سيبقى أياما ثم يعود إلى القرية، وسيخدم طول مدة اقامته مجانا.. ولم يهتم عبدالرؤوف.. ثم صحب فهمى ابن بلدته عوض عبدالموجود إلى المعلم مصطفى عبداللطيف تاجر الحشيش وقدمه له على أنه سيكون الرسول بينهما.. وقال المعلم :

- برضه كده أحسن.. أنا كنت دائما خايف عليك يا سى فهمى وكان عوض من الذكاء بحيث استطاع بسرعة أن يكسب ثقة المعلم عبداللطيف واستطاع بسرعة أن يجيد خدمة الغرزة.. واستطاع أن يكون خفيفا مسليا لكل أصدقاء عبدالرؤوف وفهمى.. وأصبح فهمى يعتمد عليه فى إدارة الغرزة كما يعتمد على سنية فى إدارة باقى الاحتياجات.. استراح فهمى.. لم يعد مسئولا إلا عن مراجعة الحسابات وتخطيط التحركات.

سنية..

وعوض..

إنهما مركز العمليات بالنسبة للقائد العام فهمى عبدالهادى.

وكانت الغرزة هى كل ما يعتمد عليه فهمى فى بناء

مستبقله.. إن مصر ليست منقسمة إلى أحزاب ولكنها منقسمة إلى غرز.. كل غـرزة لها أعضـاء يخدمـون بعضـهم بعـضا فى سبـيل بناء الوطن.. وكانت ليلة من ليالـى أم كلثوم وهى الليلة التى يزدهر فيها الحشيش ويرتفع ثمنه ويصل إلى قمته عندما استطاع فهمى أن يقنع صديقه عـبدالمجيد بأن يتوسط له لدى والده المحامى الكبيـر عبدالمجيد مرعى ليـقبله فى مكتبه تحت التمرين.. وفى نفس الليلة كان صـديقه عبدالرؤوف يحكى عن مـصيـبة وقع فـيـها والده البـاشا عنـدما وقع ضـمانا لأحـد أصدقائه بـخمسة آلاف جنيـه وهرب المدين وبدأ البنك يطالب الباشا بالسداد.

وقال فهمى :

– بسيطة.. قول للباشا ولا يهمه.. وبكره حافوت عليه.

ولا أحد يهتم بهذا الكلام.. كلام الحشيش.. ولكن فهمى كان فى الصباح فى مكتب عـبدالمجيد مـرعى المحامى، وفى نفس الصباح كان فى بيت عبـدالرؤوف جالسا مع والده.. واستطاع أن يكسب ثقة عبدالمجيد مرعى بل أنه أعطاه حق الترافع باسم المكتب قبل أن يتم مدة التمـرين.. واستطاع أن ينقذ الباشا من حجـز البنك بعد أن أكـتشف أن للمـدين عمـارة كان يخـفيـها ولم يكن أحـد يعـرف بملكيـته لهـا فـحول الحـجـز على هذه العمـارة.. وفرح البـاشا وازدادت ثقتـه بفهـمى إلى أن أصبح يعتمد عليه كأنه وكيل عنه فى كل مشاكله.

وكـانت الغـرزة تستـقـبل ضيـوفـا عابريـن من أصدقـاء الأصدقـاء.. ضيف مـدعو وليس ضيـفا دائمـا.. وكان من بين الضيـوف المدعوين مـحمود المرشـدى، إنه يزرع خمسـمائة

فــدان من الأرز وهو يريد تـصـديـره.. إن الربح أصـــبح في التصـدير لا في الأسواق المحلية، ولـكنها أول مرة يفكر فيـها في التصدير ولا يزال يبـحث عن تاجر مصدر.. وتذكـر فهمى أنه منذ عدة أســابيع مر على الغرزة عبـدالعزيز الشناوى.. إنه صــاحب مكتب تصدير وهو يـعلم أنه يصدر الإنتـاج الزراعى ويعلم أنه يجلس في مقـهى فى شارع عمــاد الدين، وذهب إليه فهـمى وفى جلسة واحدة اسـتطاع أن يتفق معـه على تصدير أرز محـمود المـرشدى، وتمت العمليـة فى أيام وخرج فـهمى منها بأكـبر مبلغ كان قـد دخل جيبه حـتى يومها.. خمـسمائة جنيه.. عمولة الصــفقة.. أو كما أراد أن يسميهـا أيامها.. أتعاب محاماه.

وهكذا كان يعمل.

يعيش فــى الغرزة كل ليلة يلتـقط من خلال دخــان الجوزة كلمــات نائمة توقظ فى عـقله مشـروعات وصــفقات جـديدة.. ويأتى الصـباح ليتـبخـر الكلام من كل أدمغـة الحشــاشين إلا رأسه، فيبدأ فى عملية تبادل ما تفتح له من خدمات.. إن الغرزة هى القيادة العامة لفكره.. لمواهبـه.. لذكائه.. ربما كانت القيادة العامة لكل الفكر المصرى.. بل أصبحت الغرزة تمثل كل الطبقة الحاكمة فى مصر.. إن شخصية عبدالرؤوف ابن الباشا تجذب وتطمئن كل أولاد الطبقـة الحاكمة، لا لعبقريتـه إنما لمجرد أنه منهم.. وكلهم من مــلاك الأراضى.. إنه لو ضمت الأفـدنة التى تملكهــا عائلات هؤلاء الأبناء لكانت توازى عـشرين فى المـائة من أرض مصـر.. وفهمى الفــلاح الفقير هو الذى يسيطر ويدير هذه الغرزة.. إنــها غرزة تعـبر عن حـركة وطنيـة.. وهو زعيم

الحركة.

وابتسم فهمى بينه وبين نفسه وهو يصل إلى هذا التحليل ابتسم كأنه يهنىء نفسه.. أنه وصل إلى الزعامة الواقعية فى إدارة الحكم لمصلحة نفسه.

وكان بين زوار الغرزة شخصيات تمثل طبقات المنافقين.. إن النفاق أيضا تمثله طبقة.. شخصيات تمثل الانعكاس الضعيف لشخصية فهمى نفسه.. فهمى يقدم خدمات أساسية ولكن هذه الطبقة تقدم خدمات فرعية.. وقد دهش فهمى عندما فوجىء فى ليلة من الليالى بالبكباشى محسن عبداللطيف يأتى بصحبة مدحت نور الدين ابن أخت رئيس الوزراء.. إن البكباشى محسن هو أهم ضابط بوليس فى إدارة مكافحة المخدرات.. ولـيلتها وبعد أن أعد عوض عبدالموجود الجوزة وهم فهمى بأن يلتقط قطعة الحشيش ليسقطها فوق الحجر، قال البكباشى محسن :

– عن إذنك يا فهمى بيه.. ده واجب علينا.

وأخرج البكباشى قطعة حشيش كبيرة من جيبه.. لا يقل وزنها عن ربع أقه، وقطع منها بأسنانه ما يكفى الجوزة، واعتمدت الغرزة الليلة كلها على جيب البكباشى، ثم ترك ما بقى فى جيبه هدية للغرزة قبل أن ينصرف.

وبسرعة استطاع فهمى أن يكتسب صداقة البكباشى محسن، وكان يزوره فى إدارة مكافحة المخدرات.. ويقول له محسن :

– امبارح كان فيه ضبطية كبيرة فى رشيد.. إنما إيه..

حاجة تستاهل قعدة.

ويفتح درج مكتبه ثم يلف قطعة كبيرة من الحشيش الذى صودر فى الضبطية ويخفيها فى جيب فهمى.. هدية للأصدقاء.. ولم يكن فهمى يحاول أن يحاسب عبدالرؤوف أو غيره من الأصدقاء على ثمن الهدية بل كان يصارحهم بالحقيقة.. إنها هدية من الدولة.

وأصبح البكباشى محسن هو حصن الأمان لفهمى.. وقد جاء المعلم عبداللطيف تاجر الجملة يوما ليبلغه أن البوليس قبض على أحد أولاده متلبسا بالحشيش ويطلب منه أن يتولى القضية كمحام.. ولكن فهمى لم يكن يقبل قضايا المخدرات ورغم ذلك طمأن المعلم وذهب إلى البكباشى محسن، واستصدر منه أمرا بالإفراج عن ابن المعلم فى الحال.. وأخذ فهمى أتعابه حوالى ربع طربة حملها إليه عوض عبدالموجود.

وأصبح فهمى قادرا على أن يستغنى عن شقة عبدالرؤوف ويقيم وحده بعيدا عن الغرزة.. أو على الأقل يستطيع أن يقيم غرزة لحسابه.. ولكنه قرر أن يبقى حيث هو فى شقة الزمالك.. فى مركز القيادة.. وهو أيضا محتاج دائما إلى أن تبقى الغرزة منسوبة إلى صديقه عبدالرؤوف.. ابن الباشا.. إن اسمه أمان كبير يستطيع أن يختبىء وراءه، كما أنه اسم جذب إلى الغرزة أبناء هذه الطبقة الحاكمة.. ثم أن هذه الشقة يعتبرها طالع سعد.

إنه يتفاءل بها.. لقد بنى كل كيانه من داخلها.. وكل ما فعله بعد أن اغتنى أن أعاد تأثيث الشقة كلها.. أصبح له غرفة نوم فخمة وغرفة مكتب رائعة واحتفظ لعبد الرؤوف بالغرفة

المخصصة للفراش الواسع بعد أن أعاد تأثيثها هى الأخرى واحتفظ لفرقة الحشيش أو الغرزة بطابعها العربى وإن كان كل متطلبات البيت من حسابه الخاص ولكنه لم يطلب من رؤوف أن يتخلى عن دفع الإيجار على الأقل حتى لا يشعره بأن شيئا تغير.

إلى أن حدث حريق القاهرة عام ١٩٥٢.

وهو يذكر الأحاديث التى دارت ليلتها فى الغرزة.. أحاديث تتخللها نفس الضحكات المسطولة التى تتردد كل ليلة.. وعلق فى رأسه الصاحى كلمة صديقه محفوظ رضوان.. إن محفوظ هو دائما فيلسوف الغرزة.. لا يتكلم كثيرا.. وعندما يتكلم يقول حكمة.. وبعد أن يقولها ينساها كما ينساها كل من حوله.. ما عدا فهمى إنه مؤمن بفلسفة محفوظ.. هذه الفلسفة التلقائية كأنها نتيجة وحى أو إلهام.. قال محفوظ :

- ما حدش حرق القاهرة.. القاهرة حرقت نفسها.. انتحرت.. خلاص القاهرة التى عشناها لن تعود.. كلنا نعود.. شايفين حتة الفحم دى.. أهى بتحرق نفسها لغاية ما تبقى تراب.. القاهرة بتاعتنا حتبقى تراب.. ده خير يا جماعة.. حاتبقى فيه قاهرة نوع تانى.

هذه الكلمات فهمها فهمى.. فهم أن هناك شيئا جديدا كبيرا سيحدث للقاهرة.. ربما ثورة.. واستعرض الوجوه الجالسة أمامه وأفواههم مسترخاة فى انتظار تلقى الجوزة.. لو قامت ثورة فإنها ستقضى على كل هذه الوجوه.. لن تعود بعدها لهذه الغرزة أى قيمة إلا إذا استطاعت أن تبنى نفسها من جديد كما تحاول القاهرة أن تبنى نفسها.

وبدأ فهمي من يومها يعود إلى اهتمامه السابق بالتشكيلات السياسية السرية والعلنية كما كان أيام الجامعة.. بدأ يعيش المجتمع السياسي البعيد عن الحكم.. ولا يكاد يقع في يده منشور حتى يبحث ويسعى ليكون على اتصال بالذين أصدروه.. حتى الضباط الأحرار استطاع أن يصل إلى بعضهم بعد أن قرأ منشورات لهم.. لم يكن يعرف أن هؤلاء هم الضباط الأحرار ولكن يكفي أنهم ضباط يتكلمون في السياسة ويعبرون عن ثورة.. ربما كانوا هم أصحاب المنشور.. وبدأ خلال ذلك يستضيف شخصيات جديدة إلى الغرزة.. شخصيات يتصور أنها تعبر عن الجديد وفي الوقت نفسه ينفر بعض الشخصيات القديمة التي تعودت على الغرزة.. ينفرها بنوع الخدمات التي يقدمها لها.. إن مجرد الابتسامة أو الكلمة تعتبر خدمة.. وكثير من ابتساماته وكلماته أصبحت منفرة، أشبه بالشلاليت وكأنه يطردهم.. والحديث في الغرزة يعبر عن أحلام اليقظة.. ومدحت نور الدين يقول :

– عبود باشا بيشتري الوزارات.. دفع للملك خمسة ملايين علشان يسقط وزارة ويجيب وزارة.. طيب ما نجيب عبود نفسه.. أنا سأقترح على بابا الباشا أن يطالب بتعيين عبود باشا رئيسا للوزراء.. ده الحل الوحيد.. ما حدش يقدر يحكم مصر إلا مليونير.

وقال حسن خليل ضاحكا :

– ما تيجي نبعت له سنية يمكن تقنعه.

وقهقهت الغرزة.

وقال عبدالعزيز جعفر نائب زعيم الطلبة وكان قد تخرج وأصبح مديرا لمكتب عبدالسلام البهجورى عضو الوفد والوزير السابق :

– هم أرادوا أن يحرقوا الوفد.. مافيش فايدة.. كلها يومين والوفد يحرقهم.. كلها يومين وسراية القبة وعابدين حايتحرقوا.. حريقة بحريقة

وقال حسن وهو لا يزال يضحك :

– ما تخلوا الانجليز يحرقوها بالدبابات زى ما حصل زمان.

وفهمى ينظر إليهم فى اشفاق.

إنهم يحرقون أنفسهم.

قطعة الفحم تحرق نفسها.

وقامت الثورة.

ليس فى هذه الغرزة من يمثل الثورة.

وفهمى حائر.. تائه.

٤

وكان أصعب ما بدأ فهمي يواجهه بعد الثورة هو أن يفهم ما هي الثورة.. لم يكن يهمه أن يفهم مبادئها أو أهدافها بل كان الأهم عنده أن يعرف من هو المسئول عنها.. أن يكتشف من الذى يحكم مصر.. واكتشف بذكائه الريفى أنه محتاج لوقت طويل حتى يحدد بالضبط الطبقة الحاكمة الجديدة، ولكنه كان يعرف أن هذه الطبقة الجديدة هى طبقة الجيل الجديد.. طبقة الشبان.. لم يعد مهما أن يكون فلانا ابن فلان بل أصبح المهم هو فلان نفسه.. أى إن زبائن وأصدقاء الغرزة بعد أن كانوا من أبناء الطبقة الحاكمة يجب أن يكونوا من الحكام أنفسهم.. ثم إنه اكتشف بسرعة أيضا أن النظام الحزبى قد وجد داخل الثورة من يوم بدأت الثورة ولكن لم تعد الأحزاب هى أحزاب الوفد والسعديين والدستوريين والشيوعيين والإخوان.. و.. بل أصبحت الأحزاب هى حزب محمد نجيب وحزب عبدالناصر وحزب يوسف صديق وحزب خالد محيى الدين وحزب بغدادى.. و.. و.. وهو قد قرر وضعه السياسى منذ كان طالبا فى كلية الحقوق على أن يهرب من أى وضع حزبى وأن يكون صديقا للجميع. وخادما للجميع : وأن لا يشترك أبدا فى أى عملية تنفيذية أو يتولى مركزا تنفيذيا إنما يكتفى بسماع الرأى

وخدمة الأصدقاء.. ولذلك قرر أن يبتعد عن كل أحداث الثورة فى أيامها الأولى وأمر بوقف مجتمع الغرزة فلم يعد يفتحها لجلسات الحشيش، وأقنع صديقه عبدالرؤوف بأنه أصبح فى خطر لأنه ابن باشا ونصحه بأن ينقطع عن التردد على الشقة وأن يمنع أصدقاءه من التردد عليها حتى لا يعرضوا أنفسهم لهجمات البوليس الحربى، وأمر سنية وعوض بألا يسمحا لأحد من الأصدقاء القدامى بالدخول، بل أمر عوض بعدم التردد على المعلم عبداللطيف تاجر الحشيش.. وكان صريحا حتى أن صديقه عزت جعفر الذى كان أحد زعماء الطلبة جاءه يبحث عنده عن نفسين حشيش فقال له بصراحة :

- هو حد قادر يتنفس اليومين دول يا أستاذ جعفر.. إحنا بطلنا نفس من زمان وربنا يستر.

وبدأ فهمي يعود إلى نشاطه القديم قبل عهد الثورة.. نشاط البحث عن أصدقاء جدد.. وكان وهو طالب يبحث عن صداقة أولاد الأغنياء الذين يمثلون الطبقة الحاكمة، أما اليوم فهو يبحث عن صداقة طبقة لا وجود لها.. طبقة ليس لها صورة.. ورغم ذلك وصل إلى صداقة الكثيرين وكان دائما يحس فى هذه الصداقات الجديدة بضعف شخصيته.. لقد تعود على أن يستمد شخصيته من داخل الغرزة.. كان هناك يحس بأنه يتحكم فى كل الأصدقاء وكانت الصداقة لها قوة النفوذ وقوة الحكم.. كان يحس كأنه يعيش شخصية الحكام وهو يحس بعد أن أغلق الغرزة أنه تنازل عن الحكم.. وهو الآن مجرد واحد من أفراد الشعب أو على الأصح واحد من المنافقين الذين يجرون وراء الوجوه الجديدة.. بل إن الوجوه الجديدة التى ظهرت بعد الثورة تستقبل كل من يتقرب إليها على أنه من طبقة

المنافقين.. إن الشعب كله ينقسم فى تقدير هذه الوجوه إلى منافقين وأعداء، فإما أن يتحول إلى منافق أو يتحول إلى عدو.. ولذلك كان فهمى حريصا على البحث عن هذه الصداقات الجديدة على أن يعرفها من بعيد، وأن يبدو أمامها كأنه لا شىء.. مجرد محام صغير وأحد الشبان الوطنيين الذى لا يمارس وطنيته إلا فى خدمة الأصدقاء.

إلى أن وصل إلى صداقة عبدالمنعم ربيع.. لقد سبق أن التقى به قبل الثورة، وكان ضابطا صغيرا.. مجرد ملازم أول.. وكان يتردد على غرزة متواضعة ذهب إليها مرة مع عزت جعفر كمجرد زيارة.. وفجأة وجده بعد الثورة يجلس إلى مكتب فى غرفة بمبنى مجلس الوزراء، وسمع أنه واحد من الذين لهم حق دخول مبنى قيادة الثورة.. ربما كان سكرتيرا أو مدير مكتب فلان أو علان.. المهم أن عبدالمنعم استقبله بترحاب أخوى، كأن مجرد لقائهما السابق فى غرزة جعل منهما إخوة أو عائلة واحدة.. عائلة حشيش.. واكتشف فهمى بسرعة أن عبدالمنعم يعمل فى مكتب خاص يسمونه مكتب الأبحاث.. وربما المقصود هو المعلومات لا الأبحاث.. أو بصراحة أكثر مكتب مخابرات.. وسأله عبدالمنعم :

- هل لك صديق من الإخوان.. أريد أن اجتمع بأحد من الإخوان حتى أفهمهم.. والمعروفون من الإخوان لا أفهم منهم شيئا وأتمنى لو التقيت بواحد من الشبان غير المعروفين.

وقام فهمى عبدالهادى بالخدمة.. كان له صديق شاب من الإخوان يعمل كاتبا فى محل تجارى بشارع فؤاد الأول صحبه ليقدمه إلى عبدالمنعم .. وحرص على ألا يتم اللقاء فى شقة

الزمالك بل فى مكتب عبدالمنعم.. واكتفى بأن يكون كل دوره هو تقديم كل منهما للآخر ثم انسحب من بينهما. وفى مرة أخرى قال له عبدالمنعم :

- ألا تعرف أحدا من أصدقاء أحمد حسين.

وأيضا سعى فهمى إلى أن أقنع صديقا له كان من أعضاء الحزب الاشتراكى الذى يتزعمه الأستاذ أحمد حسين وصحبه إلى لقاء عبدالمنعم وانسحب من بينهما.

إنه يقوم بنفس المهمة التى كان يتولاها وهو طالب فى الجامعة بأن يقدم أصدقاءه الطلبة للأحزاب والتكتلات السياسية العلنية والسرية دون أن ينضم هو نفسه لأى حزب أو تكتل سياسى.

ولم يكن فهمى يستفيد من صداقته لعبدالمنعم إلا إحساسه بأنه قريب من السلطة وسماعه كثيرا من الأخبار والأنباء قبل إذاعتها وقبل أن تصبح واقعا.. وكان أهم ما سمعه هو أنه تقرر نهائيا فرض قانون الإصلاح الزراعى الذى يحدد الملكية بثلثمائة فدان حتى لو أدى ذلك إلى طرد على ماهر الذى كان رئيسا للوزراء وكان يعرقل المشروع.. وجرى فهمى إلى صديقه عبدالرؤوف.. إن والده يملك خمسمائة فدان.. وقال له إن القانون الجديد سيحدد الملكية بمائة فدان فقط ويجب أن يوزع سليم باشا الأرض على أولاده قبل أن تأخذها منه الثورة.. وتعمد فهمى أن يحدد الملكية بمائة فدان لا بثلثمائة لأنه كان مقتنعا فعلا بأن التحديد لن يقف عند الثلثمائة فدان، وهو صادق فعلا مع صديقه رؤوف ووالده سليم باشا.. إنهما أصحاب فضل عليه.. إن عبدالرؤوف لا يزال صاحب شقة

الزمالك التى يقيم فيها.

واقتنع الباشا بنصيحة فهمى.. إنه يثق فيه ويعامله كأنه وكيل أعماله.. ولكن كيف يتصرف فى الخمسمائة فدان.. أن يحتفظ لنفسه بمائة.. ويكتب مائة باسم ابنه عبدالرؤوف.. ومائة باسم ابنته خيرية.. ويبيع مائة.. وتبقى مائة.. وقال الباشا :

- ستكون هذه المائة باسمك يا فهمى.. أنت أيضا ابنى.. وحاول فهمى أن يتظاهر بالرفض.. إنه يتمنى هذه المائة فدان.. بعد الأفدنة الثلاثة التى تركها أبوه وطرحت له الفقر واستنزفت دم أمه حتى دفنت فيها، يصبح مالكا لمائة فدان.. إنه لا يستطيع أن يقاوم.. لا يستطيع.. وأعلن الخضوع لإلحاح الباشا بشرط أن يطبق قانون تحديد الملكية.. وكتب هذه الورقة.. وكتب عقد البيع بينه وبين الباشا وسجله دون أن يدفع مليما واحدا، حتى رسوم التسجيل كانت من مال الباشا.. ثم احتفظ بكل الأوراق معه.

وعبدالرؤوف جالس فى غرفة الزمالك وعوض يقدم له الجوزة وقد قلب شفتيه فى قرف.. لم يعد لأحد حق الدخول إلى الغرزة إلا صاحبها عبدالرؤوف.. هذه تعليمات فهمى.. أين أيام زمان.. أيام العز عندما كانت الغرزة تمتلىء بأولاد الباشوات والبكوات والزعماء والقادة كان عوض أيامها يحس أنه خادم الدولة لا خادم الغرزة.

وفهمى جالس يقرأ فى كتاب دون أن يشارك عبدالرؤوف ولو بمجرد الحديث إلى أن رفع عبدالرؤوف شفتيه من فوق غابة الجوزة وقال من خلال الدخان الذى ينطلق من صدره

كأنه يهرب منه :

– أصبحنا عائلة واحدة فعلا يا فهمى.. حتى فى الإرث.. أنت وأنا أصبحنا شركاء بالوراثة.

وقال فهمى وهو يحاول أن يبدو كأنه الأخ الأكبر.. إنه لم يعد مجرد فقير يصادق غنيا :

– احنا طول عمرنا كده يا رؤوف.. من أيام الجامعة.. هذه الشقة ملكك وأنا أقيم فيها معترف بملكيتك.. وأنت تعلم إنى كنت أستطيع أن أقيم فى شقة أخرى.. لم أعد معرضا لحياة الرصيف كما كنت عندما دعوتنى للإقامة فى هذه الشقة.. وربما فكرت أن أتركها حتى أحس بأنى أصبحت أقوى من الرصيف وبأنى لم أعد فى حاجة إليك.. ولكن هذه الشقة تربطنى بك.. تؤكد صداقتنا.. وحبا لك وتأكيدا لصداقتنا أبقى فيها.. وكذلك الأرض.. لقد قبلت أن أكتب مائة فدان باسمى حتى لا تضيع منك.. وكما تستطيع أن تطردنى فى أى وقت من الشقة تستطيع أن تطردنى من الأرض.

وقال رؤوف وهو يطلق من صدره جرعة أخرى من الدخان:

– مادامت الأرض فأنا مطمئن.

وأحس فهمى كأن رؤوف يشك فيه لأنه احتفظ بأوراق الأرض معه وقال وصوته يتسلل من خلال الدخان :

– إنها معى أقل تعرضا للخطر وحتى لا نفضح.. وأنت تعلم أن الباشوات وأولاد الباشوات مثلك معرضون دائما للتفتيش.. إنها أوراق تعرضنى لما تعرضك وتعرض الباشا له.. وربنا يستر.

وعاد رؤوف يشد أنفاسه.

وفهمي عبدالهادى يحس أنه أخذ الكثير فعلا من رؤوف وعائلته، ربما لم يبق شيء لم يأخذه بعد إلا أخته خيرية.. إنها الآن فى الثانية والعشرين من عمرها وقد تزوجت وطلقت دون أن تنجب.. طلقت لأنها زهقت من زوجها.. مجرد زهق.. وكان المعروف عنها فى المجتمع كله أنها سريعة الزهق.. كل حياتها قصص قصيرة تنتهى بالزهق وصفحات المجتمع فى صحف قبل الثورة كانت تضعها كل حين فى حالة حب جديد.. ولم يكن أبدا حبا إنما هكذا هى.. ورغم ذلك فلماذا لا يتزوجها.. مهما كان أنها ابنة باشا وهى بالنسبة له كأرض الباشا يتمناها ويطمع فيها.. ولكن ليس الآن.. إنه لو تزوج ابنة باشا لباع طبقته بثمن رخيص.. طبقة الفلاحين.. والمفروض أن طبقة الفلاحين هى الآن التى تحكم أو على الأقل طبقة فوق مستوى الشبهات.. لماذا يفكر فى الزواج بها.. إنها ليست فى قيمة الأرض التى أخذها ولا الشقة التى يسكنها، يكفى أن يتخذها متعة.. إنه إلى الآن لم يجرب امرأة فى حياته.. لم يجرب الجنس.. وهو يعلم بما يقال عنه من إنه عنين.. إنه لا يحس بأنه عنين ولكنه لا يحس بأنه يريد.. فليبدأ بخيرية.. يفض بكارته فى فراش ابنة الباشا.. وهو واثق أنها لا تمانع.. إنها تحاول كثيرا أن تغريه وأن تشده إليها.

ولكنه مقتنع بأنه يخسر كثيرا لو ضعف واستجاب.. إن مجرد صداقته لأخيها وأبيها يعطيه قوة أكبر على العائلة.. ليؤجل الآن موضوع خيرية.. وهو يكثر من تردده على صديقه الجديد عبدالمنعم ويقدم له الخدمات حتى يسمع منه آخر أخبار قرارات الثورة.. وطبعا لم يبح لصديقه بعملية تقسيم

أرض سليم باشا.. وكان قد فكر كثيرا فى أن يعيد افتتاح الغرزة بدعوة عبدالمنعم.. إنه صديق مفيد فعلا.. ثم إنه يستطيع أن يضم إلى الغرزة شخصيات مهمة من الوجوه الجديدة.. ولكنه يخاف دائما من عبدالمنعم.. ربما كان ما يخافه منه أنه لا يعلم حتى الآن مركزه ولا مسئوليته.. أحيانا يعتبره سكرتيرا وأحيانا يعتبره مدير مكتب وأحيانا يعتبره مخابرات، وتنقلات عبدالمنعم بين مكاتب القيادات المعروفة تجعله أكثر حيرة.. ثم إنه لا يعلم بالضبط إلى أى جهة داخل الثورة ينتمى عبدالمنعم .. هل هو من رجال محمد نجيب أم من رجال عبدالناصر أم من رجال صلاح سالم أم إنه لا شىء إطلاقا.. لذلك قرر تأجيل افتتاح الغرزة إلى أن فوجىء يوما بعبدالمنعم يقول له من خلال ابتسامة خبيثة :

– عيب يا فهمى.. كان يجب أن تبلغنى.

وقال فهمى فى دهشة :

– أبلغك ماذا ؟

قال :

– عملية أرض سليم باشا.. دى عملية تهريب.

وسقط لسان فهمى فى حلقه.. ووصلت الأخبار .. يا ساتر.. وابتلع ريقه حتى استرد لسانه وقال له وهو يحاول أن يبدو طبيعيا :

– لا يمكن أن تكون عملية تهريب.. إنها عملية صريحة مسجلة فى أوراق رسمية.. أراد أن يتجنب قانون الإصلاح الزراعى فوزع أرضه.. وهذا ما تريده الثورة.. توزيع الأرض.. بل إن الثورة حددت الملكية بثلاثمائة فدان وسليم باشا حددها

لنفسه بمائة.. والأمر أخيرا لكم.. وقد وهبني مائة فدان باعتباري أمثل طبقة الفلاحين فإذا أردتم أن اردها إلى طبقة الإقطاعيين فأنا تحت أمركم.

وضحك عبدالمنعم قائلا :

– المهم إنك شاطر يا فهمي لو كل «محامي» خرج من موكله بمائة فدان تبقى الثورة قامت لخدمة المحامين.. هل تعرف خيرية ابنة سليم باشا .

ونظر إليه فهمي كأنه استرد ثقته بنفسه بعد أن اكتشف نقطة ضعف خصمه :

– طبعا أعرفها.. إنها اخت صديقي وابنة موكلي.

وقال عبدالمنعم مستمرا في الضحك :

– إنها معروفة جدا.. ما تعرفنا بالعائلة يا استاذ فهمي.

وقال فهمي في برود :

– يشرفهم .

وبعد أيام ذهب فهمي بصحبة عبدالمنعم لزيارة عبدالرؤوف في بيت العائلة، واستقبلوه كأنه الثورة كلها.. كأنه الحكومة.. وبسرعة كانت خيرية قد التقطت عبدالمنعم.. إنها تريد أن تجرب الوجوه الجديدة.. الحكام الجدد.. وعبدالمنعم لم يكن له هدف من زيارته إلا خيرية.. وربما تعمد أن يشير إلى موضوع الأرض حتى يقنعهم بأنهم في حمايته وأن من حقه أن يأخذ ثمن الحماية.

وبعدها بأيام اتصل عبدالمنعم بفهمي في التليفون.. إنها أول مرة يتصل به.. أول مرة يسعى وراءه.. واستدعاه إلى

مكتبه، وهرع فهمي إليه، وقال عبدالمنعم ضاحكا :

– كيف حال شقة الزمالك.. كنا زمان نحلم بأن ندخلها..

وقال فهمي في قرف :

– تحت أمرك .

وقال عبدالمنعم وهو لا يزال يضحك :

– أظن أن من حقي الآن أن أدخلها.. وستكون معي ضيفة عزيزة.

ولم يفاجأ فهمي.. إنه يعلم أن التي ستكون معه هي خيرية وخيرية لا تستحق أن تكون مفاجأة :

وعاد عبدالمنعم يقول :

– قلت لنفسي بدلا من أن ندخل بيننا غريبا نجعل زيتنا في دقيقنا.. وربما كان يكفيني بيت الباشا نفسه ولكن أفضل أن أكون في جو أكثر حرية.. على كل فأنا أعرف أن شقة الزمالك هي شقة عبدالرؤوف أخو خيرية.. ولا إيه.

وقال فهمي في برود :

– لك حق.

وقال عبدالمنعم كأنه يضع فهمي في مكانه :

– إنك لا ترحب بالفكرة.. على كل حال معلوماتنا تقول إنه ليس بينك وبين خيرية أي علاقة.. ويكفيك الأرض.

وضحك فهمي وهو يردد :

– لك حق.

وتعمد فهمي ألا ينتظر عبدالمنعم في الشقة، تركه لعوض

يقدم له فنجان القهوة، وجاءت خيرية واستقبلتها سنية بفرحة العثور على كنـز.. إنها تستطيع أن تستغل هـذا الكنز.. الشباب والجمال واسم العائلة.. إنها ابنة باشا.. وتركت سنية الكنز مع عبدالمنعم فى الصالة الغربية.. ثم عادت إليهما بعد قليل لتقول فى حياء مفتعل :

– أتحب يا سيدى أن تنتقل إلى الشقة الأخرى.

وقال عبدالمنعم ضاحكا :

– شقة إيه يا سنية.

وقالت سنية :

– الشقة اللى فوق يا سيـدى.. أصل سى فهمى زمانه جاى ويمكن يكون معاه حد.. ويمكن ست خـيرية ما تحبش تشوف حد غريب.

وقال عبدالمنعم :

– دى معلومات جديدة.. ماكنتش أعرف أن فيه شقة تانية.

وهو يريد أن يكتشف الشـقة الأخرى وخيـرية يشدها حب الفرجـة على كل جديد.. وقـاما مع سنيـة التى تطبق تعليـمات فهـمى.. ليس من حق أى غريب أن يمارس شـهوة الجنس فى هذه الشقة.. كلهم فوق فى الشقـة التى تركها ساكنها الأجنبى ولم يعـد بعـد رغم مـرور أكثـر من عـامـين وإن كـان يرسل إيجارها بانتظام.

وأصبح عبـدالمنعم هو الضيف الوحيد على شـقة الزمالك.. لم يعد يكتفى بلقـاء خيرية فى الشقة العليا بل أصـبح من حقه أن يجلس جلسة الغرزة وإن كان لم يصـحب معه أبدا أحدا من

أصدقائه.. الجوزة لا تجمع إلا بينه وبين عبدالرؤوف، وفهمى جالس للدردشة، وعوض يتولى مسئولية التعمير.. وقال عبدالمنعم وهو يطلق أنفاسه :

– مانفسكش تشتغل يا رؤوف.

وقال عبدالرؤوف :

– مستنى الليسانس.

وضحك فهمى.. إن رؤوف مضى عليه فى امتحان الليسانس ثمانى سنوات ولم يحصل عليه بعد.. وقال :

– الليسانس هو اللى مستنيك.

وقال عبدالمنعم :

– تعمل إيه بالليسانس.. اسمع.. احنا بندور على رئيس لجمعية الحمد لله الخيرية.. اكتشفنا إن فلوسها كتير أكتر ما كنا نتصور وعايزين واحد يمسكها يكون بتاعنا.. إيه رأيك.. إنت مش مسلم.. كفاية.. على الأقل الناس مش حتقول إن احنا عينا فيها ضابط.

وخيل لرؤوف أنه يحلم أحلام الحشيش.

وجرى فهمى إلى عبدالمنعم فى صباح اليوم التالى ليكتشف أنه نسى وعده لرؤوف ولكن منعم ظل عند وعده بعد أن ذكره به فهمى.. وعين رؤوف رئيسا لجمعية الحمد لله الخيرية الإسلامية.

وقال منعم وهو ممد على وسادة من وسائد الغرزة :

– الشقة اللى فوق حكايتها إيه.

وقال فهمى :

– صاحبها خواجة جريكى سايبها لعبدالله البواب يأجر فيها زى ما هو عايز.

وقال عبدالمنعم وعوض يمد الجوزة إلى شفتيه :

– ما دام صاحبها سايبها.. خلاص تبقى بتاعتك.

وقال فهمى :

– ازاى بأه.

وقال منعم :

– مالكش دعوة. بس المفتاح يبقى معايا يا فهمى.. لا معاك ولا مع البواب.

وقال فهمى فى قرف.

– موافق.

وبعد أيام صدر قرار بمصادرة الشقة وبعدها استولى فهمى على عقد الإيجار.

وتمر الأيام.. والشهور.. إلى أن اختفى عبدالمنعم فجأة.. وطاف فهمى يبحث عنه.. وبدأ يسمع قصصا عجيبة.. لقد أجرى معه تحقيق، ولا يدرى فى ماذا وقيل إنه أعتقل ثم أفرج عنه وعين وزيرا مفوضا فى بلد افريقى.. إن البلاد الأفريقية مخصصة للمبعدين.

واستراح فهمى من ثقل دم عبدالمنعم ربيع وهز كتفيه بلا مبالاة.. فى ستين داهية.. وقالت خيرية وهى تسمع الخبر :

– لو كان عين فى باريس أو لندن لذهبت معه.

وسألها فهمى :

- هل كان قد طلب منك الزواج.

وقالت خيرية :

- يقدر.. مـا بقاش إلا دول كـمان.. إنما الحـقيـقة هو مش بطال.

وفهـمى يقيس حكايته مع عـبدالمنعم.. كل مـا خرج به من الحكاية هى المائة فدان التى كتبـها له سليم باشـا.. المرحوم.. وإنقاذ أرض العائلة من الإصـلاح الزراعى.. ليس هذا قليلا.

وعاد فهمى وأوقف نشاط الغرزة.

وبدأ يبحث من جديد.

٥

ظلت الغرزة مغلقة مدة طويلة، ربما أكثر من عام، حتى عبدالرؤوف لم يعد يتردد عليها إلا نادرا فقد قرر بعد أن تولى رئاسة جمعية الحمدلله الخيرية الإسلامية أن يحصر حاجته إلى الحشيش فى تدخين السجائر الملفوفة.. إن له الآن هيبة وكرامة تفرض عليه أن يراعى مظهره، ومظهر الجوزة لم يعد يليق به.. تكفى السجائر.

وعوض أصبح عاطلا.. خادم عادى ليس وراءه إلا أعمال البيت، حتى إنه اقترح أن يتصل بالمعلم عبداللطيف تاجر الحشيش ويتعامل من خلاله مع غرز أخرى، ولكن فهمى لم يوافق على الاقتراح رغم ما فيه من مكاسب، وعوض لا يستطيع أن يتصرف بلا موافقة فهمى.. إنه سيده.. وفهمى لا يبخل عليه أبدا، إنه يعوضه عن البقشيش الذى كان يخرج به من الغرزة وعن العمولات التى كان يحصل عليها من المعلم عبداللطيف.. لقد اشترى عوض فدانا فى قريته ملاصقا للفدانين اللذين يملكهما فهمى.

وسنية مستسلمة.. إن فهمى بالنسبة لها هو الدنيا والآخرة رغم أنه مصر على ألا يقربها.. وقد أقنعت نفسها بأنه مسكين

غلبـان حرمــه الله من نعمــة الجنس فــهى واثقة إنه لا يقـرب غيرها أيضــا، وقد فرحت فرحة العـمر عندما سمح لهـا أخيرا بأن تدلك له ظهـره كل صـبـاح بعد أن يـسـتـيـقظ من النوم.. وصديقاتها اللاتى كانت تستدعـيهن إلى الشقة العليا كلما طلب أحد زبائن الغـرزة، أو كانت توزعهن على بيوت أصـدقاء سى فهمى، أصبحن يائسـات منها، وهى لا تهتم بيأسهن ولا تحس بأى قيمة لأى امرأة عرفتـها إلا خيرية.. أخت سى عبدالرؤوف بيه.. ابنة الباشا.. التحفة الغالية التى تساوى اللمسة منها ذهب قارون.. آه لو استطاعت التعامل مع خيرية.. وقد انقطعت عنها خيرية منذ أن اخـتفى عبدالمنعم ربيع.. وقد حدث بـعد شهور أن اتصلت بها خيـرية بالتليفون وطلبت منها أن تعد لهـا شقة الدور العلـوى فى زيارة، وفـرحت سنـيـة.. بدأ التـعـــامل مع خـيريـة.. ولكنها اضــطرت أن تقول لـهـا إنهـا يجب أن تســأل البـواب أولا وكانت تريد أن تســأل فهـمى.. وثار فهـمى.. هذه الوقحة.. القذرة.. إنهـا وصلت إلى حد أن تبحث هى عن فراش تنام فيه مع رجل لا أن تترك الرجل يعد لها الفراش.. وبلغ من ثورة فهمى أن خافـت سنية وقالت لخيرية إن الشقـة مشغولة وقد تبقى مشغولة دائما.. وبدأت تعانى حسرتها.

وفهمى يوالى تقديم الخدمات للأصدقاء.. إن مكتب المحامى هو مكتب خـدمات وقـد جـعلها خـدمـات من هذا النوع.. وهو لا يقبـل قضايا تعـرض على المـحاكم.. من أدراه.. ربمـا قبل قضـية كان خـصمه فـيها يسـتند إلى واحد من طبـقة الحكام فيـضيع مع القضــية.. لا.. إنه لا يذهب إلى المحــاكم.. إنه فقط كمحام يقبل أن يكون مستشـارا قانونيا لشركة من الشركات،

أو يقبل أن يعد عقدا لصفقة.. إن كل كبار المحامين فى البلد أصبحوا يعتمدون على إعداد عقود الصفقات.. المحامون الصغار هم الذين يذهبون إلى المحاكم.. وهو دائما يحس بنقص كبير.. نقص الاعتماد على شخصية من الشخصيات الحاكمة حتى لو كانت شخصية تافهة كشخصية عبدالمنعم ربيع.

إلى أن التقى بمحمود شاكر..

إنه شيء كبير..

إنه مدير مكتب رجل مهم.. مهم جدا فى الطبقة الحاكمة.

وقد عرفه فى زيارة لصديقه محمد المرجوشى.. وكان شاكر يشكو من عملية خاصة بأرضه.. إنه يملك عشرة أفدنة فى الجعفرية وكانت ملاصقة لأرض عائلة إلهامى باشا التى استولى عليها الإصلاح الزراعى.. وقد اكتشف شاكر أن إلهامى باشا كان قد استولى على عشرين فدانا كان يملكها جده.. جد شاكر.. وبعد أن استولى الإصلاح الزراعى على الأرض فلاشك أنه أصبح من حق شاكر أن يسترد العشرين فدانا.. وقد وضع يده عليها فعلا ولكنه لا يدرى كيف يسجلها فى الشهر العقارى.

وفى نفس الجلسة تعهد فهمى أن يقوم بتسجيل الأرض وهو يعلم أنه ليس فى حاجة إلى قانون أو إثبات لتسجيلها.. يكفى أن يسجلها باسم محمود شاكر مدير مكتب عبدالحميد الأنصارى الرجل المهم فى مجتمع الطبقة الحاكمة.

وسجل الأرض فعلا..

وأصبح صديقا لمحمود شاكر.

وشاكر يعاني متاعب أخرى فى زراعة هذه الأرض.. إنه فى حاجة إلى تراكتور وفى حاجة ليبنى لنفسه بيتا فيها.. إن الأرض أصبحت ثلاثين فدانا بعد أن كانت عشرة، وهو لا يملك تكاليف زراعة الثلاثين فدانا..

وقال فهمى فى بساطة:

- بسيطة..

ثم ذهب إلى عبدالرؤوف وأقنعه بسحب خمسة آلاف جنيه من أموال جمعية الحمدلله الخيرية الإسلامية عاد بها شاكر ليبدأ فى شراء التراكتور وبناء البيت.. ولم يخف على شاكر مصدر هذه الأموال وقال فى جدية :

- إنها جمعية خيرية وزراعة الأرض هى خير للبلد كله.

وضحك شاكر وقال:

- هذا ما أقنعت به صديقنا وزير الزراعة.. أقنعته أن تتولى الوزارة زراعة الأرض لحسابى باعتبار أنها عملية فيها خير للبلد.. وقد ضم الوزير إلى الأرض ثلاثة أفدنة كانت على الطريق الزراعى ولكنه أصر على أن أدفع الثمن فورا وكاملا بلا تقسيط.. ودفعت فى الفدان خمسين جنيها.

وقال فهمى فى خبث الفلاحين:

- ثمن معقول.. خمسون جنيها للفدان.. معقول جدا.

وتأكدت أكثر صداقة فهمى لشاكر.. صداقة خدمات فى جميع مجالات الخدمات.. وفهمى عرف أن (شاكر) له فى ليالى الدخان.. وهو يتمنى أن يجذبه إلى غرزته.. وفى براءة دعاه يوما إلى تناول العشاء، وضحك شاكر قائلا:

- لا أستطيع أن أرد لك دعوة.. هل سنكون وحدنا؟

وقال فهمى:

- كما تريد.. لندع من تشاء..

وقال شاكر:

- لا.. لنبدأ وحدنا.. وأنت أعزب وتقيم وحدك فدعنى أصحب معى فتحية.. وتبقى قعدة.

المطربة فتحية.

إن علاقتها بشاكر معروفة.

ورحب فهمى بوجود فتحية.

وفتحت الغرزة من جديد.. وبذل عوض كل ما كان يختزنه من فنون عالم الحشيش، وبذلت سنية كل مواهبها فى اكتساب ثقة وصداقة فتحية.. وبدأ شاكر يقضى كل لياليه فى غرزة الزمالك.. وكان يدعو معه أصدقاءه.. كلهم من الطبقة الحاكمة.. وكان يصر على أن تكون معه فتحية وبدأت سنية تتفق معها على دعوة عدد من النساء ليساعدنها فى إحياء الحفلة.. هى تغنى وهن يفتحت آذان الشلة. والشقة فى الدور العلوى بدأت أسرتها تهتز وتمتلىء بالنشاط.. وفهمى رزين صامت يشد قامته الطويلة وينفخ صدره العريض ولا يفتح الشباك حتى لا يطير منه الدخان.. وكل ما يريده أصبح سهلا.. ويقوم بعمليات كبيرة لحسابه.. وصل إلى تحقيق أكثر عقود شركات التصنيع، وأصبح محامى مندوبى الاتحاد السوفيتى وكثير من الدول الأفريقية ويعرف دائما كم يأخذ وممن يأخذ وكم يعطى ومن يعطى.. ولا يتأخر فى أن يقدم للأصدقاء خدمات صغيرة.. كل من يريد سيارة نصر تحت أمره وكل من يريد تعيين أحد من أبنائه أو أقاربه فى السلك الدبلوماسى أو فى

مجلس إدارة أو.. أو.. تحت أمـره.. ودائما تكفى كلمة شــاكر.. وشاكر تحت أمره.

إلى أن فاجأه شــاكر يوما بأن الرجل المهـم قرر أن يقضى الليلة معهم يا خبر.

عبدالحميد الأنصارى نفسه فى غرزة الزمالك.

وهو هادئ.. ساكت يبدو مكدودا متـعبا كأنه يريد أن يطير بالدخان بعـيدا.. فى السمـاء.. وعندما حـاول فهمى ليلتـها أن يخرج قطعة الحشيش ليضعها فوق الحجر.. صرخ فيه شاكر:

- لا يا فهمى.. الليلة حاجة تانية.. حته بحرى.

وتولى شاكر تموين الجوزة بنفـسه، ومن ليلتها لم يعد من مهمة فهمى تموين الجوزة، فإن الحشيش يجب أن يكشف عليه أولا.. ويجب أن يكون حشيشا رسميا.. من البحر إلى الغرزة.

وكل من حـول الرجل المـهم لا ينادونه باسـمه ولا بـلقبـه الرسـمى إنما يسـمونه البـرنس.. وكل واحد منهم يـحاول أن يضحك البـرنس.. فإذا ضحك البـرنس هللت الغرزة كلهـا. لقد ضحك البرنس.

وأصبح البرنس يقضى الليـالى فى غرزة الزمالك.. وأحيانا يدق جـرس التليـفـون ويرد أحـد أفراد الـشلة.. ليس من حق فـهـمى أن يرد على التليـفـون أثناء وجـود البـرنس.. ويعـود الصديق ويهمس فى أذن البرنس فيقوم وينصرف فورا.

ولكن وجـود البــرنس أثار فى فكر فــهــمـى كـثـيـرا من الاحتمالات، فالبرنس له شلة داخل الطبقة الحاكمة، وهناك شلة أخرى ليست شلته، وشلة ثالثة.. وفــهمى يحب البرنس.. يحبه إلى درجة أنه يشفق عليه من نفـسه ومن أصدقائه.. ولكنه مع

كل هذا الحب لا يريد أن يعرض نفسه للمعارك الشللية.. لا يريد أن يصبح ضحية للبرنس أو لغير البرنس.

وكان يعرف خليل الغمرى.. إنه أحد أفراد الشلة الأخرى التى لا تحب البرنس.. وبدأ يزور خليل الغمرى وفى بساطة كأنه لا يقصد شيئا قال إنه فى إحدى الجلسات إنه صديق البرنس وإنه يدعوه فى كثير من الليالى عنده.

وقال خليل بنفس البساطة :

- نحن نعرف يا فهمى.. ونعم الصداقة.. كن معه ولا تؤخر شيئا يطلبه.. إنه فى حاجة إلى من يرفه عنه وما يرفه عنه.

ولم يفاجأ فهمى بأن الشلة الأخرى تعرف أن البرنس يتردد عليه فى غرزة الزمالك.. إنهم يتوقعون كل شىء.. وكل ما يهمه أنه أبلغهم بنفسه ووضع نفسه تحت أمرهم.. صديقا لهم كما هو صديق للبرنس، ولو أرادوا هم أيضا غرزة فأهلا وسهلا.. إن كان ما يريده هو أن يأمن جميع الشلل.

وهمست فتحية فى أذن سنية :

- أنت يابت ماتعرفيش غير النسوان النيلة.. ماتعرفيش واحدة عليها القيمة.

وقالت سنية والمرح يملأ صدرها:

- أعرف يا ستى.

وقالت فتحية وهى تبحلق فى وجه سنية تحاول أن تكتشف أغوارها:

- زى مين كده؟

وبسرعة قالت سنية :

- زى ست خيرية.. دى بنت باشا.. تربية حلوة.. وشابة..

وتتكلم فرنساوى.

وقالت فتحية :

- طب هاتيها.

وقالت سنية فى براءة:

- لمين يا ستى؟

وقالت فتحية:

- للبـرنس.. مافـيش ولا واحدة من صـاحبـاتى عجـبتـه.. وحرام يقعد كده لوحده وكل واحد غيره معاه واحدة.

وشهقت سنية :

- يا خبر.. للبرنس نفسه.. حاضر يا ستى.. أقول لها.

وندمت سنية بعدها لأنهـا تعهدت باستدعاء خـيرية قبل أن تستأذن فهمى.. وعندما أبلغـته لم يثر كما كانت تنتظر.. سكت طويلا.. أنه منع عبـدالرؤوف من دخول شقـة الزمالك منذ بدأ شاكـر يتردد عليها، وأقنعـه أن مركز رئيس جـمعية الحـمد لله الخيـرية الإسلامية لا يـسمح بمشاركـة المسئـولين مثل هذه الليالى.. ولكنه لن يمنـع خيرية.. الفتـاة التى كانت فى يوم من الأيام حلما لا يتحقق، ثم أصبحت أمنية ليتزوجها، ثم ردم هذه الأمنية لأنها كانت تتعارض مع مصالحه.. ثم تركها لشاكر فى سـبيل مـصـالحه .. والآن يقـدمـها للرجل المـهم.. للبـرنس.. لا يستطيع أن يرد له طلبا.. ورغم ذلك فهو دائما يشعر بمرارة وهو يترك خيرية لرجل آخر كأنه يضـحى بشىء يملكه.. بقطعة منه. إنه دائما كان يريدها لنفسه وكان يحرم نفسه منها.

وقال لسنية فى هدوء:

- اتصلى بها.. وقـولى لها كل شىء حتى تستـعد.. وقولى

لها أيضا إنى موافق..

وجاءت خيرية إلى الغرزة.

وجاءت وهى تعرف لمن جاءت.

وهى من الذكاء بحيث تستطيع أن تقدم نفسها فى الصورة التى تختارها.. وقد اختارت أن تقدم نفسها فى صورة الفتاة الارستقراطية ابنة العائلة الكبيرة التى لم تؤثر الثورة على كبريائها وفى غرورها بنفسها.. وقد مرت فى تجارب مع هذه الطبقة الجديدة الحاكمة.. إنهم يشتهون الطبقة القديمة.. يشتهون بنات الباشوات والبكوات ونادى الجزيرة.. إنهم الشعب يسترد ما كان محروما منه.. كل ما كان محروما منه حتى بنات هذه الطبقة.. وأغلبهم محدود المعرفة.. لم يقرأ أكثر من مقررات المدارس.. ولم ير من المعالم أبعد من مقر بيته ووظيفته.. وهم يبهرون بالعلم.. يبهرون بالمعرفة.. وهم محرومون من تقاليد موروثة.. ويبهرون بكل ما يفرض عليهم تقاليد جديدة.. إن بعضهم يبهر عندما يصب له الجرسون الكأس..ثم هذا النوع الراقى من النساء الذى كان غاليا عليهم.. إنهم يتصورون أنهن شىء آخر فى الفراش غير النساء اللاتى تعودوا عليهن.. لقد اكتشفت كل ذلك من معرفتها بعبد المنعم وبغيره من أفراد الطبقة الجديدة.

ودخلت خيرية بهذه الصورة إلى غرزة الزمالك.. وبهروا بها.

والبرنس يرفع إليها عينيه الطيبتين ويقوم من فوق الوسادة التى يجلس عليها ليصافحها.. لم تكن هذه عادته عندما يستقبل باقى النساء.. والمطربة فتحية تلتقطها بعينها

فى فرحة لا تلبث أن تنقلب إلى غيظ.. إنها ستستولى على الجو كله، ولن يبقى لها شىء.

وقال البرنس:

– الليلة نسمع فتحية ترحيبا بخيرية.

وهدأت فتحية.. إنها لن تفقد مكانتها فى الغرزة وإن كانت ستقتصر على أن تكون مطربة الغرزة بعد أن كانت أهم امرأة فيها.. المهم أنها فى حماية شاكر ومن فوقه حماية البرنس.. ولن تستطيع خيرية بكل جمالها أن تحرمها من وجودها.

وخيرية دائما جالسة بجانب البرنس.

وكل ما بينهما نقاش تشترك فيه الشلة كلها.. نقاش تتعمد فيه خيرية أن تدخل فيه كل ما قرأته وكل ما تعيه ذاكرتها مما سمعته حتى تبدو مثقفة.. من طبقة الانتلجنسيا التى لم يصل إليها كل من حولها.. والبرنس مقتنع فعلا أنها مثقفة وأنها جميلة وأنها من عائلة.. ولكنه لا يقربها.. مضى أكثر من شهرين دون أن يحاول أن يأخذها وإن كان قد بدأ يحتفظ بيديها فى يده أحيانا أو يربت على كتفها أو يطيل ضمها بين عينيه.. إلى أن قال مرة ضاحكا خلال إحدى مناقشاتهما الطويلة :

– الطريقة الوحيدة لإسكاتك هى أن أتزوجك.

وسكت الأصدقاء كلهم فى دهشة.

وسكتت خيرية برهة.. ولما كان البرنس هو أحد الرجال الذين لا يقربون المرأة إلا فى الحلال.. ثم قالت فى لهجة جادة :

– أرجوك.. الزواج ليس كلمة تقال.. لا تحرجنى بأن

تشعرنى أنى لا أسمع إلا كلام الحشيش.

وقال البرنس :

- ليس كلام حشيش إنى أطلبك للزواج.. هل توافقين..

وقبل أن يسمع ردها التفت إلى شاكر قائلا :

- شاكر.. استدع المأذون.

وتردد شاكر ثم نظر إلى فهمى قائلا :

- ثم ابحث عن مأذون يا فهمى..

وهللت الشلة كلها فرحا.. مادام البرنس يريد الزواج فيجب أن يهللوا فرحا. وقال شاكر وهو يقترب أكثر من البرنس:

- مادام كده.. تسمح لى سيادتك أنى أتزوج فتحية..

ودمعت عينا فتحية فرحا.

وعاد فهمى بالمأذون.

وزغردت سنية.. وغنت فتحية لنفسها ولخيرية أغنية مبروك عليك عريسك الخفة.. غنتها فى صوت هامس.

وكانت الساعة الرابعة صباحا.. وقام البرنس ليعود إلى بيته العائلى.. بيته الرسمى.. وقال لزوجته خيرية:

- تعودين كالعادة بسيارتك وغدا نتفق على المستقبل.. وطبعا المستقبل سر لا يعلمه إلا الله.. كل حاجة من الليلة سر.. طبعا مفهوم.

وفهمت خيرية أن البرنس يقصد أن يبقى زواجهما سرا..

وخرج البرنس.. وخرج جميع الأصدقاء.. وبقيت خيرية .. إنها تريد أن تتفق مع فهمى على تفاصيل مستقبلها.

- إنه دائما محامى العائلة.

وبكل هدوء شدها فهمى من يدها وأرقدها فوق الفراش، وهى مستسلمة فى دهشة.

وكانت أول امرأة يأخذها فى حياته.

أخذها كأنه يودعها إلى الأبد

أخذها وهو يشعر بإحساس الشماتة الريفية.. لقد أخذ زوجة البرنس.. إن شخصيته كاملة إنه لا يعطى إلا ما لا يريده.. لا أحد يستطيع أن يأخذ شيئا لا يريد إعطاءه.. حتى البرنس.. وربما أراد ليلتها أن يذل خيرية بعد أن أصبحت زوجة البرنس حتى لا تحاول أن تتمرد عليه أو تستهتر به أو تظن أن من حقها أن تعامله كأنها زوجة البرنس.. أراد أن يضعها فى مكانها الحقيقى وقبل ليلة الدخلة.. إنها واحدة من هؤلاء النساء حتى لو تزوجت البرنس.

وقالت خيرية فى لهجة ساخرة بعد أن تركها :

– كنت فين من زمان.

وقال فى استهتار :

– ماكانش لى مزاج.. من هنا ورايح حاتبقى مزاجى.

وقالت من خلال ابتسامة ملتوية كأنها بصقة :

– بس يا خسارة.. أنا بقيت صعب.. صعب قوى.

وقال فهمى فى تخذ :

– ماتصعبيش على يا خيرية.. ده عمر طويل.. وضحكت ضحكتها الساخرة وتركته وخرجت.

وقرر البرنس أن تقيم زوجته فى الشقة العليا بعمارة الزمالك.. فوق الغرزة.. إنها فى موقع لا يمكن أن يخطر على بال أحد أن يتردد عليه أو أن له زوجة تقيم فيه.. وقد كان من

عـادته أن يقـضـى سـهـرات الليل وهو مـتـخف فى زى بلدى.. جـلابية.. ومـعطف.. وليس مـعه إلا حـارس واحد يصـاحبـه كصـديق.. ومنذ بدأ يتـردد على غرزة الزمـالك وهو يعتـقد أن لا أحد أكتشف أمره.

وفى صباح اليوم التالى ذهب فهمى إلى خليل الغمرى ممثل الشلة المـضادة وأبلغـه مـا حدث.. وامـتعض خليل وقـال فى أسى:

– ألم تكن تستطيع أن تمنع هذا الزواج..

وقال فهمى فى برود :

– أمنعـه ازاى.. لقد فـوجئت به كـأنه قنبلة انفـجرت فـوق رأسى.. وشاكـر تزوج فى نفس الوقت من فتحيـة.. كأن الليلة كانت مخصصة للزواج..

وقال خليل متحسرا :

– مسكين.

ولم يفهم فهمى كيف يكون البـرنس.. البرنس نفسه.. كيف يكون مسكينا.. كل هذا كيف يكون مسكينا.

– والأيام تمر.

وخيرية تقيم فى الشقة العليا وتشترك فى جلسات الغرزة.. وهى دائما الملكة.. ودائما فى صورة ارستقراطية الانتلجنسيا، وكانت تتعمد أن تقرأ كثيرا وبدأت تقرأ فى موضوعات لم تكن تهـمهـا إنما هى تهم البـرنس، حـتى تتبـاهى عليه بثـقافـتهـا وتعرضها فى الغرزة كأنها تلقى فى كل ليلة درسا.

وفهـمى منذ فض بكارة رجـولته أصـبح يحس بنفسـه فى حالة جـديدة.. إنه يريد فى كل ليلة امـرأة.. حاسـته الجنسـية

تيقظت بعد عمر طويل نامت فيه.. ولكنه كان قد غير رأيه بالنسبة لخيرية.. إنه لن يأخذها مرة ثانية.. لن يأخذها إلا إذا طلبته.. إن ذكاءه يحتم عليه أن يعاملها كأنها هى الأقوى.. وهى فعلا أصبحت الأقوى فى السيطرة على الغرزة وخير لها وأبقى أن يستسلم لها.. إنه ينتظر أن تأمره أن ينام معها.. ولكنها لا تأمره بشىء من هذا.. لا تريده.. إنها أصبحت تتعامل معه على أنه محامى العائلة وكانت فى حاجة إليه حتى يدلها على ما تستطيع أن تخرج به من هذه الزيجة.. يجب أن تخرج بشىء.. إنه زواج ليس له عمر.. قد يطلقها البرنس غدا أو بعد غد.. أو قد يشده أصدقاؤه إلى غرزة أخرى.. ويجب أن تحسب حسابها من اليوم.

ونصحها فهمى فى لهجة الأستاذ الخبير وهو محتفظ بقامته الطويلة وصدره العريض أن تركز على جمع الهدايا.. هدايا البرنس.. والهدايا لا تتوقف.. جواهر.. الماس.. ذهب.. والتقطت خاتما كان البرنس قد وضعه فى أصبعها ليلة أمس وقالت وهى تزغلل به عينى فهمى :

– أنا متأكدة إنه خاتم الأميرة نسل شاه.. رأيته فى أصبعها زمان فى إحدى حفلات الأميرة شويكار.

وفى يوم آخر استدعت فهمى إلى الشقة العليا.. وفتحت أمامه حقيبة مكدسة بالدولارات الأمريكية وقالت فى لهجة الملكات:

– حملها إلى البرنس.. قال إنه يطمئنى بها على مستقبلى.. ولا أستطيع أن أقدركم دولارا فى هذه الحقيبة.. عدهم لى من فضلك.

وبدأ فهمي يعد ولكنه بعد دقائق جمع الدولارات داخل الحقيبة وأغلقها وقال فى حدة :

– أنت لست فى حاجة إلى عدها الآن.. احتفظى بالحقيبة كما هى إلى أن تحتاجى إليها.

وقالت فى رجاء :

– أريد أن احتفظ بهذه الدولارات فى الخارج.

وقال الأستاذ :

– يا عبيطة.. إن الداخل أكثر أمانا من الخارج أى عملية تهريب ستكتشف وأى حساب لك فى أى بنك فى الخارج سيعرف.. إن كلا منهم يعرف عن الآخر كل شىء.. احتفظى بالحقيبة تحت السرير فى سذاجة وبراءة.

وهزت رأسها موافقة.

ووقفت لعلها تتعلق به.. تدعوه إلى جسدها.. ولكنها لا تغريه ولو بإشارة وكأن كل ما سبق أن حدث بينهما لا تذكره.. مجرد دور فى لعبة الطاولة.. وهى لم تعد تريد أن تلعب الطاولة معه.

ورجولته التى أيقظتها تعذبه إلى حد أن فكر أن يدعو سنية إلى فراشه.. لا.. إن المرأة اللى ترفعه عنها وهو لا شىء لا يمكن أن يقبلها على نفسه بعد أن أصبح كل شىء.

والغرزة تجتمع معظم ليالى الأسبوع.

وحشيش الغبارة الثقيل الغالى يتكدس دخانه بين الجدران الأربعة وكلهم فى منتهى درجات السلطنة.. وخيرية تقول كلاما بالفرنسية لا يفهمه أحد.. وقال شاكر فجأة فى صوت مسطول :

- دعونا نحارب اليهود.

وقال فؤاد مرزوق وهو ينفث الدخان من صدره:

- فاكرين القعدة اللى قعدناها نحارب فى اليمن..

وقال عباس رفقى :

- كانت قعدة متعبة.. قعدت بعدها يومين وأنا محرم على نفسى الحشيش.

وقال شاكر :

- بس ليلتها كانت الحتة ممتازة.. مافيش زى تعميرة اليمن.. ولا إيه يا برنس..

وقال البرنس فى صوته المهذب الخفيض :

- أنا موافق.. تعالوا نحارب اليهود.

وقال عباس :

- نبتدى نحرك الدبابات وتطلع لغاية رفح.

وقال شاكر :

- الطيارات تتحرك الأول.

وقال البرنس فى هدوء :

- ماتحركش الطيارات إلا بعد ما نطمئن على موقع الدبابات.

وقال فؤاد مرزوق :

- ما تنسوش الممرات يا جماعة.. ممر الجدى.

وقال شاكر ضاحكا :

- جدى إيه يا تور.. إيه اللى حيوصل اليهود للممرات.

وقال البرنس مبتسما :

– تروح أنت يا فؤاد تمسك العريش.

وقال شاكر ضاحكا :

– ما تسيبوه معانا يا برنس.. القعدة ما تستغناش عنه.

وقال عباس رفقى وشفتاه تتطلعان إلى غابة الجوزة :

– دعوه يذهب إلى العريش.. الثلاجات فى غزة بتراب الفلوس.. يرجع بكام تلاجة وكام تليفزيون.

وضحك الجميع وصاح شاكر :

يا فهمى.. قول للواد عوض يغير الحجر.

وقال البرنس ضاحكا :

– نبعت عبدالعزيز الخربطلى هناك علشان نخلص منه.

وقال عباس :

– ده طالع فيها.. وحايعمل بطل.

وفهمى يسمع ويحفظ ما يسمعه كأنه يقرأ قصة مثيرة.. إنه الوحيد بينهم الذى لا يعتبر مسطولا.. ودخان الحشيش المكدس فى فضاء الغرزة لم يعد يؤثر فيه.. وقال كأنه يريد أن يثبت وجوده :

– وأنا يا جماعة.. خدونى معكم.

وقال شاكر ضاحكا :

إنت تكتب البيان.. اكتبه بالعبرى علشان يفهمه اليهود.

وقال عباس مرددا ضحكة شاكر :

– أنا نفسى إنك تقعد تألف كتاب بعنوان أثر الحشيش فى التاريخ المصرى.. إيه رأيك.. ده الحوحو مهم جدا فى التاريخ.

وتأثر البرنس وقال :

- نأجل الحكاية لبكرة يا جماعة.. كفاية كده الليلة..ثم التفت إلى شاكر قائلا :

- اضرب تليفون وقول لهم إنى حسابات فى المكتب.. تصبحوا على خير.

ولف ذراعه حول خيرية وصعد بها إلى فوق.

وغاب البرنس عن الغرزة وعن خيرية مدة طويلة.. شهر وهى وفهمى فى انتظاره كل يوم.. إلى أن فاجأهما بعودته.

وعاد كل شيء كما كان.. ولكن البرنس يبدو أكثر إنهاكا وتعبا وجهه ممقوت وخطواته بطيئة يكاد يترنح بها.. وهو يطلب الجوزة منذ الصباح.. لم تكن هذه هى عادته.. كانت الجوزة مخصصة لجلسات المساء فقط وليس مساء كل يوم.. أياما كثيرة كان يقضيها البرنس بعيدا عن الجوزة مكتفيا بخيرية.

واجتمعت الغرزة كما كانت تجتمع.. نفس أفراد الشلة.. ودارت الجوزة طويلا وهم أقرب إلى الصمت إلى أن قال شاكر وقد لمع الحشيش فى عينيه كأنه سحابة من ضباب :

- ما تيجى نكمل حكاية الحرب مع اليهود.

وقال البرنس بسرعة :

- لا.. شوفوا لنا حكاية تانية.

وقال عباس رفقى وهو يضحك :

- زمان لما كانوا بيحاربوا فى فلسطين كانوا بيقولوا إن المعركة يجب أن تبدأ فى القاهرة .

وقال فؤاد مرزوق :

- إزاى تبدأ بأه يا سى عباس.

وقال عباس :

- دى بسيطة.

وقال البرنس وهو يطلق أنفاسا متعبة :

- القاهرة يا جماعة ما بقتش تستحمل معارك.. كلمتين كفاية عليها.. كلمتين وكل حاجة تتغير وتتصلح.

والأصوات الكسولة تستمر فى المناقشة بين أنفاس الجوزة: وفهمى بينهم لا يتكلم ويستمع ويحفظ كل كلمة.. إنه غير مطمئن إلى هذا الكلام.. كلام يودى فى داهية إنه كلام حشيش .. ولكنه يعرف أثر الحشيش فى التاريخ المصرى كما قال عباس فى الجلسة السابقة .. وصدره يضيق ووجد نفسه يقوم ويفتح الشباك وصاح شاكر :

- حاتطير النعمة ليه يا فهمى.. اقفل الشباك..

وأقفل الشباك حتى لا يطير الدخان.

واستمر يسمع ويحفظ إلى أن انفضت الجلسة وخرج الجميع من الغرزة.

وفهمى لا ينام.

إنه خائف.

خائف على نفسه لا على أى شيء آخر.

وفى الصباح ذهب إلى لقاء خليل الغمرى ممثل الطرف الآخر وأعاد عليه كل ما سمعه.. وتلقى خليل كلامه باهتمام شديد وبقى فترة صامتا ثم قال وعلى شفتيه ابتسامة مفتعلة :

- ده كلام حشيش.. ما حدش يصدقه.. ولا يهمك.

وخرج فهمى من مكتب خليل وهو حائر.

شيء على وشك أن يحدث.

- إنه يصدق إحساسه بأن شيئا لابد أن يحدث.. وبعد أيام اختفى البرنس.. ودار فهمى يلتقط الأخبار.. أين البرنس.. ربما اعتقل.. أو ربما عين سفيرا لمصر فى دولة أفريقية كما حدث لعبدالمنعم.. ولكنه اختفى.. وفهمى واثق إنه سيبقى مختفيا وسيختفى معه شاكر وعباس وفؤاد وبقية الشلة.

وعاد فهمى إلى شقة الزمالك وأرسل سنية إلى الشقة العليا تستدعى خيرية.. وجاءت خيرية فى صورة جديدة.. إنها ليست المرأة الأرستقراطية المثقفة المتعالية.. إنها صورة امرأة بكل ما فيها من أنوثة يمكن أن تقدمها لرجل.

وقالت خيرية وهى تسقط جالسة فوق ساقى فهمى !

- تأخرت.. انتظرتك طويلا.

وقال فهمى وهو يزيحها من فوق ساقيه :

- أريدك أن تصحبى سنية وتصعدى إلى الشقة العليا وتعود بحقيبة الدولارات.

وقالت خيرية وهى تحاول أن تكبت غيظها :

- لماذا ؟

وقال فهمى :

- إنك فى خطر.. سأقول لك كل شيء.. أحضرى الحقيبة أولا .

وقالت فى دلال :

- إنها فى مكانها وتحت أمرك.. دعنا الآن لما هو أهم من مليون دولار.. واحشنى يا فهمى.. فاكر ليلة زواجى من البرنس.. لقد أخذتنى ليلتها وقلت إنك كنت فى حالة مزاج..

ماذا جرى لمزاجك ؟

وصرخ فهمى ينادى سنية :

- سنية.. أصعدى إلى الشقة اللى فوق وعودى بالحقيبة التى ستجدينها تحت السرير..

وقفزت خيرية صائحة :

- انتظرى.. سأصعد معك.

وعادا بحقيبة الدولارات.. وفتحها فهمى فوق الفراش وخيرية جالسة قبالته عارية الساقين وثدياها يطلان من فتحة ثوبها لعلها تأخذه من الدولارات.

ودق جرس التليفون .

إنه خليل الغمرى يريده حالا.

وأعاد الدولارات داخل الحقيبة وأغلقها وحملها إلى دولابه وأغلق عليها بالمفتاح، وخرج يجرى إلى لقاء خليل الغمرى.

واستقبله خليل بترحاب كبير، وقبله على وجنتيه وأجلسه وهو يقول :

- إنك صاحب فضل كبير فى كل ما حدث.. كنت أول من أبلغنا بكل شىء.. وهناك وزارة جديدة تؤلف حاليا وقد طلب منى أن أعرض عليك دخول الوزارة.. أن تكون وزيرا..

وصاح فهمى كأنه أصيب بطعنة :

- لا .. أعمل معروف.. أنا كده كويس.. أنا لا عايز أبقى وزير ولا أصلح لأن أكون وزيرا.. أعمل معروف بحق الصداقة اعفينى من هذا العرض.. إنه يشرفنى رضاؤكم عنى.. ولكن لا تجعلوا منى وزيرا.. حرام.

وضحك خليل قائلا :

- خلاص.. كما تريد.. ويبدو أنك نبيه فأنت تعلم أن كل وزير لا يلبث أن يكون وزيرا سابقا.. إنك رجل تفكر فى مستقبلك.

وقال فهمى فى ابتسامة سعيدة :

- ومستقبل البلد أيضا ورحمة أمى.

وقال خليل :

- سأبلغ اعتذارك.. واعتبر إنه اعتذار مقبول.

وتنهد فهمى فى راحة.

وخرج يجرى إلى شقة الزمالك وفتح الدولاب وأخرج الدولارات.. وأخذ يعد الدولارات.

أقدام حافية فوق البحر

كلمة

كاتب القصة غير المؤرخ .. إنه يستطيع أن يطلق خياله في التاريخ ويصوره كما يريد .. إنه حر .. يرسم شخصيات الحادث كما يصورهم خياله ويحركهم كما يشاء ويضع على ألسنتهم ما يريد من آراء .

ومع اعتزازى وفخرى بالأبطال لهذه القصة ، أرجو منهم أن يعذروا خيالى .

إحسان

١

كان ذلك فى شهر مايو عام ١٩٦٧.. والمركب « علم الروم » يدخل إلى شاطىء شرم الشيخ على قمة خليج العقبة.. إنه مركب صيد صغير لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، والريس جادالله يقف معلقا فوق سارى المركب يتفرج على شرم الشيخ كأنه يراها لأول مرة.. إنه شاب قد لا يتجاوز الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، ووجهه الوسيم الهادىء الأسمر لا تبدو عليه لفحات المعاناة التى يعانيها الصيادون وأولادهم فى معركتهم المستمرة مع السمك.. وكان يرتدى قميصا مهلهلا فوق صدره العارى، وبنطلونا تآكلت أطرافه، وقدماه حافيتان وإن كانتا لا تبدو فيهما شقوق الأقدام التى تعودت الحفاء.

واقترب المركب من الشاطىء وقبل أن يصل إلى مكانه انطلق صوت عنيف من ناحية الشاطى ومن وراء مدفع صارخا :

إنزل وإلا أطلقت النار.

وصرخ الريس جادالله من فوق السارى :

- يا جدع إننا بلديات.

وعاد الصوت يصرخ :

- إنزل وإلا أطلقت النار.

ونزل جادالله من فوق السارى بسرعة واقترب من الريس محمد عويضة الذى يمسك قيادة المركب وأمره بإلقاء الخطاف رغم أنهم لا يزالون فى منتصف الخليج الصغير الضيق.. واستجاب عويضة فى استسلام دون مناقشة.. الريس عويضة فى الستين من عمره على الأقل ووجهه الأسمر الغامق مجعد بآثار عمر طويل قضاه فى معارك صيد السمك، وهو يرتدى الزى التقليدى المعروف لصيادى البحر وأولاد الشاطىء من بورسعيد إلى الغردقة، وكان يتلقى أوامر جادالله وهو ينظر إليه كأنه فرح به وبين شفتيه ابتسامة هادئة كأنه يحتضن بها ابنه.

ووقف المركب الصغير وسكت صوت آلات الموتور فى داخله، ونادى جادالله اثنين من الصيادين عاوناه على إنزال قارب الإنقاذ إلى البحر، واعتلاه الثلاثة فى طريقهم إلى الشاطىء.. إنه قارب قديم متآكل ما كاد يلمس البحر حتى بدأت المياه تتسرب إلى داخله وتكاد تغطس به وفيه إلى الأعماق.

ونزل جادالله إلى الشاطىء بأقدامه الحافية وقميصه المهلهل وبنطلونه المتآكل، وألقى الشاويش قبضته الثقيلة على كتفه وأمسك اثنان من الجنود بزميليه، وقال جادالله فورا :

- خدنى إلى حضرة القائد فورا.

ونظر إليه الشاويش فى استخفاف قائلا :

- إنى آخذك حيث أريد لا حيث تطلب.

وقال جادالله فى صوت سريع كأن الأمر خطير :

- الموضوع مهم.. من فضلك خذنى إلى حضرة القائد.

وقال الشاويش :

– الأهم من المـوضـوع هى الأوامـر.. والمـوضـوع عندك والأوامر عندى.

وسكت جادالله وهو يسيـر تحت القبضة الملقاة فوق كـتفه ويتلفت حواليه كأنه يبحث عن أحد.

وعاد الشاويش يتكلم قائلا :

– يا ترى.. ماذ أوصلكم إلى هنا.

وقال جادالله :

– إننا نصطاد.

وضحك الشاويش ضحكة كبيرة وقال :

– والله زمان.. مضى سنين ولم يفكر أحـد أن يصطاد فى هذه الجونـة.. كنتم تصطادون من البحـر أم من فوق البـحر.. تصطادون سمكا أم شيئا آخر غير السمك .. كابوريا مثلا..

ولم يرد جاد الله.. واستمر سـائرا تحت قبضـة الشاويش وهو يتلفت حـواليه.. إنهم جنود من فرقـة الصاعـقة.. لم يكن يدرى أن الصاعقـة ترابط فى شرم الشيخ.. وانتهـى به السير إلى أن وجـد نفسـه يدخل هو وزمـيلاه إلى مـيس الضـبـاط مقبوضا عليهم.. ووجد أمـامه ضابطا كبيرا برتبة لواء لابد أنه قائد المنطقة.. وبجانب اللواء ضابط برتبة عقيد.. وكان الاثنان فى حالة استرخاء وأمام كل منهم كوب شاى لم يكن يبدو أنهم يسـتقبـلانه كهـيئـة محكمـة أو أنهم يهـتمان بـأمره.. وروى الشاويش تفاصيل إيقاف المركب وإنزال الريس إلى الشاطىء.. مقبـوضـا عليه تحت التهـديد بإطلاق النار.. وجادالله ينظر إلى القائد ثم ينقل نظره إلى الشـاويش كأنه يريد أن يقول شـيئا.. ولاحظ نظرات جاد الله.. وفهم.. فـهم أن جادالله يريد أن يختلى به وبالقيادة بـعيدا عن الجنود الذين قبضـوا عليه.. ورغم ذلك

أمر الشاويش بتفتيش جاداالله ومن معه.. وتمت عملية التفتيش في عنف وقسوة كأنهم يريدون أن يفتقوا تحت جلده.. وأخرجوا من جيب جاداالله علبة سجائر كليوباترا وولاعة وبطاقة تحقيق شخصية عبارة عن ورقة قديمة تآكلت وضاع لونها وهي تحمل صورته واسمه.. محمود جاد الله.. ومهنته.. صياد.. وقلب القائد في البطاقة وبحلق في أوراقها طويلا.. ربما كان أهم ما لاحظه أن الصورة تبدو أجد وأنظف من أوراق البطاقة وكأنها التقطت منذ أيام.. ورفع القائدة رأسه من فوق البطاقة وأمر الشاويش وجنوده بأن يتركوا الصيادين الثلاثة وينصرفوا.. وما كاد الجنود يخرجون من باب الميس حتى اعتدل جاداالله في وقفته واتخذ وقفة عسكرية وقال في لهجة رسمية .

– ملازم بحري عبدالحميد مهران.

ونظر القائد إلى الضابط الذي يجلس معه كأنه يبحث عن وقع المفاجأة على وجهه ثم عاد والتفت إلى جاداالله قالا :

– حدد .

وعاد جاداالله يقول في لهجة عسكرية :

– مجموعة القناصات.. مكافحة الغواصات.. ومكلف بمهمة.

وقال القائد :

– أوراقك .

ورد جاداالله وهو لا يزال منتصبا في وقفته :

– ليس معي أوراق إلا هذه البطاقة .

وابتسم القائد قائلا :

– هذه البطاقة هي التي جعلتني أشك في شخصيتك.. ولكن الشك لا يكفي.. يجب أن نتأكد.

وقال العقيد :

– أعتقد أننا يجب أن نتصل بالقيادة البحرية.

وكان فى شرم الشيخ مركز قيادة بحرية بجانب مركز القيادة البرية.. وتم الاتصال بالقيادة البحرية لإيفاد مندوب عنها يحضر التحقيق.. وإلى أن يحضر لم يكف القائد والعقيد عن توجيه الأسئلة إلى جاد الله.. إلى أن قال العقيد :

– اسمع .. إن أخى هو المقدم بحرى فؤاد البنا وهو يتميز بشىء يعرف به.. فهل تعرفه.

وقال جادالله :

– أعرفه وأتشرف بصداقته ويميزه جرح عميق فوق جبينه ناحية اليمين.

وقال العقيد فرحا :

– هذا صحيح.

وقام وصافح جادالله ضاحكا وهو يقول :

– الحمد لله على السلامة.. تفضل.

وابتسم القائد أيضا وصافح جادالله ودعاه للجلوس وطلب له شايا وهو يسأله :

– هل على المركب أحد آخر من البحرية ؟

وقال جادالله :

– عامل اللاسلكى فقط.. والبرنس عويضة وثلاثة من رجاله صيادون.. كل طاقم المركب ستة أشخاص بما فيهم أنا.

وجلس جادالله يشرب الشاى.. وعاد زميلاه إلى المركب التى عادت ورفعت خطافها لتقترب من شاطىء شرم الشيخ.

كان جادالله أو الملازم بحرى عبدالحميد مهران قد تخرج من الكلية البحرية عام ١٩٦٥ ومنذ كان صبيا وهو يعيش

البحر بخياله.. لم يكن يعيشه كعلم ولا كهواية ولكنه يعيشه كخيال لحياة منطلقة تسع العالم وينتقل فيها من ميناء إلى ميناء، في كل ميناء مغامرة وحكاية وامرأة.. وقد حاول كمعظم العسكريين أن يهرب من خياله وأن يتمسك بروتين المظاهر المدنية التى تتباهى بها العائلات الكبيرة فقرر وهو فى الثانوية أن يلتحق بكلية الهندسة.. ولكن مجموع درجاته التى خرج بها لم تؤهله للالتحاق بالهندسة فأصر على الالتحاق بالكلية البحرية واضطر والده أن يوافق على أمل أن يستطيع يوما أن يترك الأسطول البحرى ويصبح قبطانا لباخرة مدنية كبيرة.. إن قباطنة البواخر يحققون أرباحا كبيرة.. شىء آخر غير سائق القطار أو قائد الطائرة.. إن القبطان على باخرته فى مركز رئيس دولة.. ورؤساء الدول يستطيعون أن يأمروا بكل شىء وأى شىء حتى مع وجود مجلس الشعب أو المحكمة العليا الدستورية، أى حتى مع وجود الشركة صاحبة الباخرة ومع وجود قوانين الملاحة وقوانين الجمارك.. كان هذا هو رأى والده.. ولكن عبدالحميد كان شيئا آخر.. كان ما يغريه بالبحر هو المغامرة.. شق الماء للوصول إلى الأرض .. شق الروتين الاجتماعى الذى يعيشه مع عائلته الكبيرة للوصول إلى المجهول.

وقد عرف بين زملائه بإقدامه الجرىء على كل مغامرة يتعرض لها.. كان من هواة العمليات الصعبة، وكان يبالغ فى صعوبة كل عملية حتى يرضى مزيدا من هواية المغامرة.. وربما لهذا اختار أن ينضم إلى مجموعة القناصات التابعة للسلاح البحرى والتى تتحمل مسئولية البحث عن غواصات العدو وتدميرها.. ولم تكن تبدو عليه أبدا روح المغامرة،

ولم يكن يتميز بطابع الشاب المغامر، فهو جاد فى عمله دائما، قليل الكلام، ووجهه الأسمر الوسيم الذى يرتفع فوق قامته الرفيعه لا يعبر عن شىء مما فى نفسه.. لا يضحك ولا يثور بل ولا يبتسم إلا نادرا.

وكان مغامرا أيضا فى حياته الخاصة ولكنه كان أيضا يضع مغامرات شبابه فى إطار جدى صامت.. لا يبدو عليه انطلاق الشباب فهو لا يتردد على المراقص والحانات ولا يكشف عن إعجابه بفتاة حتى لو كان يسعى إليها.. كل شىء فى السر.. وكل شىء مرسوم.. وهو لا يريد أن يتزوج.. إنه مقتنع بأن الزواج ليس مخصصا للبحارة.. كيف يحتفظ بامرأة وهو يغيب عنها شهورا إلى أن يعود إليها.. ما ذنبها حتى تتحمل هذه الشهور ثم من أدراه إنها تتحمل.. وإذا كان يقال أن للبحار امرأة فى كل ميناء فهذه هى الحياة الطبيعية للبحار.. وهذا ما يجب أن تقبله أى أمرأة تريد بحارا.. أن تكون ميناء لهذا البحار ثم تتركه لميناء آخر.. وقد يعود إليها أولا يعود وقد يبتلعه البحر ليعيش فى القاع مع سمكة.. وكان يسمع عن كثير من أحوال زوجات البحارة فى غيبة أزواجهن وكان يعذرهن ولم يكن يلومهن على الخطيئة ولكنه كان يلومهن لأنهن تزوجن بحارة.. إن التى تتزوج بحارا مفروض عليها الصيام ثلاثة أرباع العام.. أى منطق يتحمل هذا.. إن المرأة إما أن تدخل الدير وتعيش الحرمان الكامل أو تتزوج رجلا يتحمل مسئولية إشباعها، أما أن تتزوج رجلا يفتح شهيتها ثم يعذبها بالحرمان فهذا حرام.

وكان هذا هو المنطق الذى يسيطر على كل علاقاته بالفتيات اللاتى التقى بهن فى الاسكندرية منذ أن عاش هناك

كطالب فى الكلية البحرية ثم بعد أن أصبح ضابطا بحريا.. كل منهن فتاة ميناء.. وكل بلد يقيم فيه هو ميناء الاسكندرية أو القاهرة ولم يكن قد ارتبط بالكثيرات.. ثلاث بنات كل منهن عرفت أنه لا يتزوج فتركن مركبه.. تركن الميناء التى يرسمها لنفسه مع كل منهن.. إلى أن التقى بزَينب.. زيزى.. إنها تريده كما هو وكما هى.. إنه لن يتزوج.. لا يهم.. وهو يغيب فى البحر شهورا.. بل إنه سافر إلى روسيا فى مهمة دراسية وغاب فيها ستة شهور.. لا يهم.. لن تسأله عن لياليه هناك.. ولم تغضب عندما لم يسألها عن لياليها هنا.. ولكن كان هناك شىء لم يحسب حسابه.. لقد تعود عليها.. أصبحت زيزى بالنسبة له ليست مجرد ميناء يرسو عليه.. إنها حياة تتكامل مع حياته.. هل يتزوجها هذا البحار.. لا يدرى.. وهى أيضا لا تدرى.. والمجتمع بدا يتهامس حولهما.. وأهله بدأوا يواجهونه.. إنهم لا يريدونها.. لا تشرفهم.. وهو كعادته صامت.. يترك الناس تتكلم ولا يتكلم..

إنه يعيش فى ميناء..

وزيزى ميناء.

وبيته ميناء.

والأرض ميناء.

وكل هذا الكلام كلام موانىء.

وما ينتظره دائما هو المغامرة.

والمغامرة لا تكون إلا فى البحر.

وتلقى الملازم ثان عبدالحميد مهران استدعاء من شعبة العمليات فى السلاح البحرى.. وكانت القوات البحرية مع باقى القوات المسلحة قد رفعت درجة الاستعداد ورغم ذلك لم يكن

أحد قد تأكد بعد أن الحرب ستعلن.. كانت الأغلبية تعتقد أن كل هذه الأستعدادات والتحركات فى القوات المسلحة هى مجرد مظاهرة سياسية لتغطية قرار قوات الطوارىء الدولية الذى أعلنه جمال عبدالناصر.. ولم يكن عبدالحميد يشغل فكره بأى احتمال.. حرب أو لا حرب.. إن كل ما كان يشغل فكره هو البحث عن عملية تشبع فيه شهوة المغامرة.. وكان كل ما جَدَّ عليه بعد رفع درجة الاستعداد هو أن زاد عدد فترات المرور التى تقوم بها مجموعة القناصات.

لا شىء أكثر .. لا شىء جديد .

إلى أن استدعى إلى شعبة العمليات.

ووقف يتلقى الأوامر الجديدة.

إنه سيقوم بعمليات استطلاع لاستعدادات وتحركات العدو على طول خليج العقبة حتى ميناء إيلات.. وستتم العملية من فوق مركب صيد.. ومطلوب منه أن يصل بهذا المركب إلى ميناء إيلات أو على الأقل يصل من فوقها إلى تجميع وتسجيل كل التحركات التى تتم هناك.. وهو من الآن يعتبر مجرد صياد مدنى ليس من حقه أن يرتدى الزى العسكرى.. بل سلم بطاقته العسكرية وهو واقف فى مكتب شعبة العمليات.. لم يعد معه ما يثبت أنه ضابط بحرى.. وتفاصيل العملية ستسلم إليه فى السويس.

وانطلق عبدالحميد إلى بيته وفى صدره فرحة لا يبدو منها على وجهه ولا حتى مجرد ابتسامة كطبيعته فى إخفاء كل أحاسيسه داخل صدره.. إنها مغامرة.. مغامرة مثيرة.. مغامرة فوق مركب لم يجرب الإبحار بها ولا التعامل معها.. بل إنه إلى الآن لم يسبق له أن أبحر فى خليج العقبة ولا فوق مياه البحر

الأحـمر كله.. وهو يعـلـم خطورة العمليـة.. إن مـراكب الصيـد لا يأخذها العدو أبدا بمظهرها، وفي حالة الحرب تعامل مراكب الصيد معاملة الأساطيل البـحرية.. وكل الدول تستعمل مراكب الصيد والمراكب التجارية كمراكز تجسس واستطلاع حتى فى أوقـات السلم.. فإذا قـام الأسطول الأمـريكى مثـلا بمناورات انتشرت حوله مراكب الصيد والمراكب التجارية السوفيتية فى مظهـر برىء كأنهـا مجـرد مركـب فى طريقهـا لطلب الرزق.. والعكس .. فإذا قـام الأسطول السوفـيتى بمناورات فعـشرات من مراكب الصـيد الأمريكيـة أو التابعة لأمـريكا تلتف حوله.. وحتى دون أن تكون هناك مناورات ولا حتى احـتمالات حرب، فإن القوات البحرية فى كل العالم تعتمد على مراكب الصيد فى عمليات الاستطلاع.. وربما لهذا تشتد الأزمات بين الدول حول تحديد نطاق الـمياه الأقليـمية التى تحـرم على مراكب الصـيد تعديتهـا لا حماية للثروة السمكية وإنمـا حتى لا تعطى مراكب الصيد مجالا أوسع للتجسس قـريبا من شواطئها .. وأكثر من ذلك.. أن الأعلام ترفع فـوق مراكب الصـيد الكبيـرة فى أعالى البحار وكثير من المراكب التـجارية كلها أعلام كاذبة.. ومعظم الأعلام التى ترفعها المراكب التـجارية الإسرائيلية أعلام كاذبة .. ليست أعلام إسرائيل.. إنما أعلام الدول الصـغيرة فى أفريقيا أو أمريـكا الجنوبية أو آسـيا التى تبـيع أعلامـها للسـفن التى تطلبها.

ووصل البـيت وعقله مـزدحم بالخطة التى يرسـمها كـأنه أصبح فعلا فوق مركب الصيد ووجد والده قد جاء من القاهرة لزيارته وقال له بسرعة :

– نقلت إلى السويس.

وابتسم الوالد فى راحة فقد جاء لزيارته خصيصا ليناقشه فى علاقته بزيزى. يجب أن يبتعد عنها حتى يسكت الاشاعات.. وقد صدر قرار إبعاده عن زيزى.. إنها لا تستطيع أن تلحق به هناك ومع الوقت ستموت الاشاعات.. وفرك الوالد يديه وهو يحمد الله.

وعبدالحميد خلع حلته العسكرية وارتدى قميصا وبنطلونا عاديين، وجمع بعض احتياجاته فى حقيبة صغيرة، ثم استأذن والده وخرج كما هو فى طريقه إلى السويس.. لم يتذكر زيزى حتى ولو بمكالمة تليفونية.. وودع والده دون أن يقول له شيئا عن مهمته الجديدة.. أسرار.. وكل إحساسه أنه يبحر والمركب تغادر الميناء.

ورسا فى ميناء الوصول.

السويس.

وبدأ يتلقى التعليمات التفصيلية لمهمته .. إن المركب التى سيبحر عليها يحمل اسم « علم الروم » وهو مركب صيد قديم متآكل لونه رمادى كالح ولا يزيد طوله على عشرة أمتار وله ساريتان وموتور يدور بالسولار ويملكه شيخ الصيادين الريس جاد الله.. وسيكون كل رجاله من رجال جادالله بمن فيهم الريس عويضة ما عدا عامل اللاسلكى ابراهيم المرجوشى فهو من رجال السلاح البحرى برتبة رقيب، وقد وضع فى داخل المركب جهاز لاسلكى من طراز روسى قديم، إن كل شىء فوق المركب يجب أن يحمل الطابع القديم حتى الخرائط ليس من حقه أن يحمل معه خريطة تفصيلية حديثة.. وليس من حقه أن يحمل بوصلة كهربائية وتكفى البوصلة المغناطيسية وتكفى آلة « السدس » التى يستعين بها البحارة

من قديم الزمان لتحديد الموقع.. لا شيء أكثر مما يعتمد عليه صغار الصيادين.

وقد تعرف بالريس جادالله وبالريس عويضة الذى سيبحر معه وعرف بقية أفراد الطاقم ولم يسترح إلى شخصية إبراهيم المرجوشي.. أحس أنه أقل صلابة وأكثر طراوة مما يجب أن يكون عليه من يتحمل مثل هذه العملية.. وقد بات ليلتها فوق المركب، وكان يريد أن يبقى عدة أيام قبل أن يبحر حتى يدرس طبائع الصيادين وحتى يتكلم لغتهم ولهجتهم ثم يدرس تفاصيل عملية الصيد.. إنه لم يصطاد فى حياته إلا بسنارة.. لا يفهم شيئا فى صيد الشباك.. يجب أن يتقمص شخصية الصياد تقمصا كاملا حتى يتأكد من تضليل العدو إذا حدثت أى مواجهة فى الطريق.. ولكن العملية عاجلة.. يجب أن يبحر فى الغد.. وسألوه فى مكتب قيادة العمليات :

– هل سبق أن أبحرت فى خليج العقبة.

وأجاب ببساطة :

– لا.. إنى فى حاجة إلى خرائط تفصيلية.

وقيل له :

– لن تحمل معك خرائط.. اكتف بأن تكون دائما فى وسط الخليج.

وكأن هذا يكفي.

وأطاع الأمر وتسلم أوراق الشفرة التى سيتخاطب بها مع القيادة.. وقال للريس جادالله قبل أن يبحر وهو واقف معه يشرف على إعداد المركب ويدعو له بالتوفيق.

– سأعتبر نفسى إبنك وأحمل أسمك.. هل تسمح ؟

وقال الريس جادالله وهو يضحك فخورا :

- يشرفنى يا سى عبدالحميد.. يشرفنا كلنا.. كل الصيادين.
وأبحرت المركب تحت قيادة الريس محمود جاد الله.. كما أصبح أسمه الملازم عبدالحميد مهران.
وكان الريس جاداالله قد اختار هذا القميص المهلهل وهذا البنطلون المتآكل وبدأ يعود قدميه على الحفاء وأطلق شعر ذقنه ورأسه.. كأن هذا هو كل ما يستطيعه بالنسبة لنفسه حتى يتخفى فى شخصية صياد.
ومنذ اليوم الأول وهو يعتمد إعتمادا كاملا على الريس عويضة فى تأمين القيادة أى السير بالمركب فى الطريق الصحيح.. وكان يقف أحيانا ويتطلع فى البوصلة ليحدد الطريق بينما الريس عويضة لا يتطلع فى البوصلة أبدا.. إنه يقود المركب فى البحر كأنه يقود سيارة فى شوارع القاهرة.. كل سر فى قاع البحر أو على جانبيه واضح أمام عينيه كأنه يعرف أسماء الشوارع دون أن يحتاج إلى قراءتها .. وقال له الريس عويضة وهو يلاحظ اهتمامه بالبوصلة :
- بوصلتى هنا.. فى المخيخ.
وجاداالله يقضى أغلب وقته معلقا فوق السارى يراقب ويستطلع وينتظر أى مفاجأة.. وينزل من السارى برهة ليحدد موقعه للقيادة بالشفرة عن طريق اللاسلكى، أو ليجلس مع رجال الطاقم حول صينية « المدفونة » ويمد أصابعه الخمس ليكبش الأرز والبطاطس والسمك الذى أصبح طعامه المفضل منذ اعتبر نفسه صيادا ثم يعود بسرعة ليقف فوق السارى لعله يرى شيئا.
والمركب الصغير يتحرك فوق الماء فى هدوء بطيء وجاداالله مبهور بالمشاهد الطبيعية التى تمر به.. الجبال

المتعددة الألوان وشعب المرجان وزرقة المياه الصافية وقفزات السمك كأنه في رحلة على لنش سياحى يملكه مليونير.. إن نسبة الجمال فى البحر الأحمر وعلى شواطئه تزيد أضعافا على نسبة الجمال فى البحر المتوسط.. إنه بعد أن ينتهى من مهمته سيطلب أن ينتقل من مركزه فى الاسكندرية إلى أى مركز على البحر الأحمر.. هل تقبل زيزى أن تعيش معه على البحر الأحمر.. ويبتسم ساخرا من نفسه.. ليس من طبيعته أن يتخيل امرأة وهو فى البحر.. المرأة لا تخطر على باله إلا فى الميناء.. حتى لو كانت زيزى التى مضى عليه أكثر من عام وهو يرسو فوقها.. إن كل ما يجب أن يشغله هو الوصول إلى الميناء الجديد.. وعاد يبتسم ساخرا من نفسه.. ومر يوم.. يومان.. وهو معلق على قدميه الحافيتين فوق السارى.. وكل اتصالاته بالقيادة تنحصر فى تحديد الموقع، ولكن المركب بدأ يتلقى اشارات لاسلكية لا يفهمها لا هو ولا إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى رغم أنها على نفس موجة الاتصال بالقيادة.. وكتم تعجبه وحيرته.. والمركب تقترب من شرم الشيخ على الشمال ويستطيع أن يلمح على اليمين جزيرة صنافير.. وأرسل إلى القيادة يحدد موقعه ويبلغ أنه فى طريقه ليرسو فى شرم الشيخ.. ولم يتخذ أى إجراء آخر لتأمين نفسه.. لم يخطر على باله أنه فى حاجة إلى أى تأمين .. والمركب لا ترفع علما تعرف به.. إنها مجرد مركب صيد صغير والتعليمات تفرض ألا يرفع عليها أى علم.. كما لم يحاول أن يتصل بأى مركز حراسة على شاطىء شرم الشيخ.. يكفى أنه أبلغ القيادة الرئيسية.. إلى أن فوجىء بالمدفع الموجه إليه.. والصوت العالى يصرخ من فوق الشاطىء.. إنزل

وإلا أطلقت النار.

واعتـذر له اللواء قائد القـيادة البـرية وهو جالس مـعه فى مـيس الضبـاط وقال له إنه مـنذ عام ١٩٤٨ حـدثت أكثـر من محـاولة تسلل إسرائيلى إلى خليج شـرم الشيخ وكلهـا كانت تتستر فى مراكب صيـد، ولذلك كان يجب أن تتخذ الإجراءات.. وضحك العقيد قائلا :

- كنا سنطلق المدافع ترحيبا بك .

وقال جادالله وابتسامته تنضح بالحسرة :

- كنت أعتـقد أنكم على علم بوصـولى.. لقد أبلغت القـيادة وأنا فى البحر.

وقال القائد فى بساطة :

- لم يصلنا شىء.

وعندما وصل ضـابط القيادة البحـرية وصحبه إلى مـركز القيـادة روى للقائد البحرى خـبر الإشارات التى كان يلتـقطها ولا يستطيع أن يفسرها.. وتركه القـائد ربما ليجرى اتصالاته بمركـز القيادة فى السـويس.. وعاد بعد أكـثر من ساعـة وقد استراح وجـهه وعلت شفتيه ابتـسامة كبيـرة.. لقد تأكدت من شـخصية الريس جاد الله.. وسأله :

- متى تسلمت قائمة الشفرة .

وقال جادالله :

- قبل تحركى بساعتين.

وقال القائد وقد اتسعت ابتسامته :

- لقد تغيرت الشفـرة فى نفس اليوم فلم تستطع أن تفسر الإشارات التى تتلقاها .

وذهل جاد الله.

كيف لم يبلغوه بتغيير الشفرة.

لا يهم .

إن كل مسئوليته محصورة فى مركب الصيد وليس من واجبه أن يتدخل فى مسئولية غيره أو يحاسب أحدا على مسئوليته.. وسلمه القائد الشفرة الجديدة بأمر القيادة الأعلى.

وبقى ليلته فى شرم الشيخ.. إنها المرة الأولى التى يجد نفسه هناك وكان يتمنى أن يبقى حتى يكتشفها لنفسه.. حتى يعيشها كأى بحار يعيش الميناء الذى يرسو فيها.. وربما كان يتمنى أيضا أن ينطلق من شرم الشيخ إلى دير سانت كاترين القريب الذى يسمع عنه منذ كان صبيا.. ولكنه لا يستطيع.. وقضى الليل يطمئن إلى تجهيز مركبه الصغير بكل احتياجاته.. وعند الفجر أبحر.. وعند الظهر كان فى داخل خليج العقبة.. ويوم.. ويومان..

وكل شىء هادىء.

إن الإبحار فى خليج العقبة هو جنة الهدوء.. والمبدع الأكبر.. الله.. يبدع هناك فى رسم الأرض التى خلقها.. ويتفنن فى إلقاء الألوان على الجبال وعلى داخل أعماق البحر.. والريس جادالله معلق بقدميه فوق السارى ويكاد ينسى شخصيته الجديدة.. شخصية ريس مركب الصيد.. إنه يعود إلى شخصيته العادية التى تبهر بالجمال.. ولا شىء يثير انتباهه إلا هذا الجمال.. إن الخليج فارغ لا حركة فيه كأنه خليج مهجور أو كأنه طريق لم يكتشف بعد.. لم تمر به خلال كل هذه الساعات إلا باخرة تجارية واحدة.. وأبلغ عنها.. لا يمكن أن تمر باخرة بريئة فى خليج العقبة بعد أن سحبت

مصر قوات الطوارىء وبعد أن بدأت النقرات على طبول الحرب.

ولم يبق إلا بضعة أميال بحرية ويصل إلى إيلات.

إنه يستطيع أن يرى من بعيد أنوارها .

أنوار ميناء ايلات.

وميناء العقبة الملتصق بها تلمع فيه أضواء خافتة كأنها ظل لأنوار إيلات.. وهو لا يستطيع أن يتقدم فى هذا الليل.. إن تقدمه قد يوقظ العدو ويعرضه للخطر.

وعلى اليمين.. على الشاطىء السعودى .. ميناء آخر يستطيع أن يرى أنواره .. قد لا يكون ميناء، ربما كان مجرد نقطة لخفر السواحل السعودى.. إنه موقع ليس مسجلا وليس له اسم على الخارطة التى سبق أن درسها.. لا يهم.

إن المركب الصغير يستطيع أن يرسو فى أى مكان سواء كان ميناء أو مجرد ساحل.. المهم أنه مطمئن إلى أنه يرسو على الشاطىء السعودى.

وطلب من الريس عويضة أن يتجه بالمركب إلى الأنوار السعودية.. ووقف بأقدامه الحافية بجانب عويضة مبهورا به وهو يتلوى بالمركب بين شعب المرجان الغائصة تحت الماء وسأله فى دهشة :

– هل جئت إلى هنا من قبل.

وهز الريس عويضة رأسه بالنفى.. لا.. إنها المرة الأولى التى يجتاز فيها هذا الخليج.

وقال جادالله وهو لا يزال مأخوذا بانبهاره :

– كيف تقدر مسالك هذه التلال المرجانية.

وابتسم عويضة وأشار بأصبعه إلى رأسه وهمس :

- المخيخ.

إن « مـخيخ » الريس عـويضة هـو بوصلته وهو مـقيـاس الأعماق فى أى مكان من البحر.

وخرجوا من بين مسالك المـرجان وفجأة انطلق طلق نارى مر فوق رؤوسهم.

ولنش عسكرى سريع يتجه إليهم ووراءه لنش آخر.

وأمر جادالله بإيقاف المركب.. ووقف على سطحـها بقدميه الحافيتـين وبنطلونه المتآكل وقميـصه المهلهل وذقنه الطويلة وشعر رأسـه الذى أصبح يغطى قفاه.. ووقف ينتظـر القادمين وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة لا تخلو من مرارة.

إن المدفع الأول الذى وجه إليه كان مدفعا مصريا.

والمدفع الثانى.. هل هو مدفع سعودى ؟

٣

اقترب اللنش المسلح من مركب الصيد « علم الروم » وهى راسية على الشاطىء السعودى بعد أن ألقت خطافهـا، واقترب اللنش الثـانى والتصق بالمركب من جانبهـا الآخر، واطمأن جادالله عندما تأكد أنهـا قوة سعودية، وكان قـد حسب حساب كل شيء.. وأهم مـا حسب حسابه هو أن يـبرر دخـوله إلى هذه الميـاه، ولهـذا تعـمـد وهو يلقى الخطاف أن يـنزع سلندر من مـوتور المركب حتى يقول إنه اضطر أن يلجأ إلى الشاطىء للإصلاح.

وقـفز ضـابط القوة إلى سـطح المركب وقـفز وراءه أحـد الجنود يحمل مـترليوز وأخـذ يبحلق فى وجـه جادالله ثم ينقل عينيه بين من يراه من طاقم المركب، وسأل :

– من أين ؟

وأجاب الريس جادالله وهو يبتسم مطمئنا كأنه يقدم جواز الأمان :

– من مصر.. وهذه المراكب مصرية.

وصرخ الضابط فى حدة :

– هذا ما قدرته.. رأيت على وجوهكم الإجرام.

وأشار الضـابط بذراعيه فقـفز إلى ظهر المـركب كل رجال

القوة السعودية.. وأصبح على ظهر المركب الصغير ثمانية جنود مسلحين ويحيطهم قاربان مسلحان.. وتفرق الجنود يشهرون السلاح فى وجه كل واحد على المركب، حتى عليش الميكانيكى الذى كان من عادته أن يرقد نائما بجانب الموتور.. كان قد أوقف الموتور بعد إلقاء الخطاف وعاد ونام فضربه جندى سعودى بطرف بندقيته وانتفض مذعورا وجفونه ترتعش فوق عينيه.. كأنه يحلم.. إنه يعلم أنه ألقى الخطاف على شاطئ سعودى.. شاطىء صديق.. فما هذا السلاح الذى أيقظه.

وجمعهم الضابط وقوفا على سطح مؤخرة المركب والسلاح موجه إلى صدورهم كأنه قرر إعدامهم بإطلاق النار.. وأخذ يمر عليهم واحدا واحدا وهو يحلق فى وجه كل منهم.. والريس جادالله يقف صامتا هادئا لا يحمل وجهه أى تعبير، والريس يبتسم ابتسامة صغيرة ساخرة كأنه يعرف مقدما كل ما سيحدث، والرقيب إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى ترتعش خلجات وجهه وينظر إلى الضابط وجنوده كأنه يهم بالبكاء توسلا إليهم وعليش الميكانيكى بدأ يتثاءب كأنه أوقف موتور عقله ويريد أن يعود إلى النوم.. و.. وصرخ الضابط فى وجه جادالله :

– لماذا أرسلكم عبدالناصر إلى هنا.

وقال جادالله فى هدوء :

– لم يرسلنا أحد.. إنها مركب والدى الريس جاد الله.. وقد كنا نصطاد فى منطقة ذهب ثم عطلت الماكينة والتجأنا إلى النور الذى رأيناه نطلب مساعدتكم.

وقال الضابط ساخرا :

- مراكب الصيد لا تمر في هذه المنطقة.. وعبدالناصر لا يصطاد إلا المصائب.. تعال معي.

وبدأ الضابط ومعه أربعة جنود يفتشون المركب قطعة قطعة.. ويقلبون كل ما عليها.. وينقرون فوق أخشابها ويمررون المجاديف تحت قاعها لعلها تخفى من تحتها شيئا.. وعلم جادالله أنهم يبحثون عن وجود أسلحة وأن التهمة الموجهة إليهم هي تهريب السلاح.. وقال للضابط في هدوء :

- لقد جئنا بأنفسنا حتى أنواركم ولو كان لدينا ما نهربه لما ألقينا بأنفسنا أمامكم.. وقال الضابط وقد بدأت حدته تخف

- من يدرى إن لعبدالناصر حيلا وألاعيب لا تنتهي.. إنه يشتمنا في بيوتنا عن طريق الإذاعة وربما ارسلكم إلينا أنتم أيضا لتخربوا بيوتنا.

الله يخرب بيته.

وتحمل جاد الله.. إنه يجمع كل أعصابه حتى لا يثور.. إن مجرد سماعه اسم عبدالناصر من غريب دون أن يسبق بلقب الرئيس كأنها إهانة.. كأنها اعتداء على علم مصر.. خصوصا والذي يتكلم عسكري وهو عسكري.

وقال وهو يبتلع ثورة أعصابه :

- صدقني.. عبدالناصر لا دخل له بنا.. إننا نسمع به في بيوتنا كما تسمعون عنه في بيوتكم ومنذ أيام لم أسمع عنه لأن ليس معنا راديو.. ونحن نسعى للرزق والرزق في يد الله لا في يد عبدالناصر.. هل يستطيع عبدالناصر أن يأمر السمكة

بأن تضع نفسها فى الشبكة.

وضحك الضابط قائلا :

- من يدرى.. إنه رجل الأعاجيب.

وضحك معه جادالله وقال :

- والله لو كان يستطيع لبقى كل منا فى بيته وطلبنا منه أن يدعو السمك إلينا.

وعاد الضابط يضحك.. وجذبه جادالله من ذراعه قريبا من ماكينة المركب وشرح له العطل الذى أصابها.. إنها مكونة من اثنى عشر سلندر وقد نقصت واحدا.. ليس فيها الآن إلا أحد عشر سلندر وهذا هو السلندر الناقص ملقى على الأرض، وكل الأمل أن يجدوا عندهم قطعة غيار. سلندر سليم.. وقال جادالله :

- إن الشاطىء السعودى هو أكرم شاطىء عربى وقد كنا طامعين فى كرمكم.

وعاد الضابط يقول :

قل هذا الكلام لعبدالناصر لعله يؤمن مثلك بالكرم السعودى.

ووقف الضابط أمام آلة اللاسلكى وتساءل بلا حماس :

- ما هذا.. ليس من عادة مراكب الصيد أن تحمل مثل هذه الآلات.

وقال جادالله بلا مبالاة :

- إنها آلة لاسلكى وضعتها الشركة التى نتعامل معها حتى ترسل إلينا مطالبها.. شركة مصايد الأسماك.

وقال الضابط ساخرا :

- مصايد الأسماك أم مصايد الحكام.

وانتهى تفتيش المركب.. ليس فيه ولا قطعة سلاح.. حتى ولا مسدس صغير يمكن أن يحمله الريس ليدافع به عن نفسه.. وكانت هذه هى التعليمات.. لا سلاح على المركب حتى يتوفر لها مظاهر التخفى إذا حدث ووقعت فى يد العدو.. واستراح الضابط السعودى ثم دعا الريس جادالله ورجاله إلى النزول معه إلى الأرض حتى يأمنهم بينما يبحث لهم عن قطعة الغيار التى يحتاجون إليها.. وفى لمحات سريعة قدر جادالله أنه فى قرية صغيرة أو مضرب خيام أقرب إلى قرية رأس محمد الواقعة على الجانب المصرى لسيناء، وربما كانت مركزا للحدود يتبع ميناء الحمضية السعودى الذى يقع على خليج العقبة.. وفى لمحات أخرى استطاع أن يقدر القوة البحرية الصغيرة والقوة الأرضية التى التقطتها عيناه.. ثم التفوا كلهم حول موقد يشوى عليه خروف تحضيرا لوليمة العشاء الذى يدعوهم إليه قائد المركز.. وجادالله ساهم يعيد قياس تخطيط المهمة المكلف بها إنه الآن على بعد ساعتين فقط من ميناء إيلات وميناء العقبة.. إنها مسافة يمكن لأى زورق صواريخ أن يقطعها فى دقائق.. أى ليس بين الساحل السعودى والساحل الإسرائيلى سوى دقائق ورغم هذا فإن السعودية لا تعتبر نفسها دولة مواجهة.. ربما لأن ميناء العقبة تفصل بين حدود إسرائيل وحدود السعودية.. ولكن ميناء العقبة لا تعتبر فاصلا إن عرضها كحاجز لا يتجاوز عشرة كيلومترات حى لا تحمل مسئولية الحرب المباشرة.. إنهم اذكياء.. ليس عبدالناصر هو أذكى الحكام العرب.

وأفاق جادالله والضابط السعودى يسأله فى صوت مرح :

– كان أشد ما أثار شكوكى أنكم استطعتم أن تجتازوا شعب المرجان وأنتم فى طريقكم إلينا.. وقد بحثت عند تفتيشكم عن خارطة بحرية يمكن أن تكونوا قد اعتمدتم عليها ولكنى لم أجد شيئا إلا خارطة قديمة ليس فيها ولا مجرد إشارة إلى الموقع.. كيف استطعتم.. هل معكم أحد سبق أن أبحر إلى هنا.

وقال جادالله وهو يفتعل المرح :

– معنا الريس عويضة.. لقد ولد فى البحر الأحمر من أبناء الدرافيل وهو يؤمن الطريق ويحرك دوما المركب كأنه يحرك ذيل سمكة.. كأنه يرى تحت الماء.. إنه لم يسبق له أن أبحر إلى هنا ورغم ذلك لم يشعر أنه يمر فى طريق غريب عليه.

وابتسم الريس عويضه وأشار إلى رأسه.

المخيخ.

وقال الضابط وهو يتحسر :

– والله يا مصريين أنتم عباقرة فى كل شىء لولا عبدالناصر.

وكتم جادالله أعصابه كأنه يخنقها بيديه وهو يسمع إهانة توجه إلى علم مصر، ومد أصابعه الخمسة والتقط حفنة من الأرز قذف بها فى فمه.. وقد عاد يرسم فى خياله طريقه.. الأفضل أن يتحرك من هنا فى الساعة الخامسة صباحا حتى يصل أمام ميناء العقبة فى مواجهة إيلات بعد اجتياز الفجر وطلوع الشمس.. ويرفع رأسه ويشترك مع مضيفه فى حكاية أو فى سؤال، ويلوى شفتيه امتعاضا وهو يرقب نفاق إبراهيم

المرجوشى لكل من حوله من الجنود السعوديين وكأنه يشحذ منهم رضاءهم عنه ويضمن لنفسه السلامة من بين أيديهم

واعتذر ضابط المركز.. لم يجدوا قطعة الغيار التى تصلح للمركب.. وقد يجدونها فى ميناء العقبة.

أوصاهم القائد أن يبحروا إلى العقبة، وكأنهم يبحرون تنفيذا لطلبه لا تنفيذا للخطة.

والساعة الخامسة.. والمركب تتحرك.. وعويضة يترقص بالمركب بين شعب المرجان إلى أن خرج بها إلى بحر الأمان.. وجادالله لا يتعلق بقدميه الحافيتين فوق السارى، ولكنه يتحرك فوق السطح مع الصيادين ويشغل نفسه بتحريك الشباك والتظاهر بالعمل كمجرد تغطية لنفسه وهو يقترب من أرض العدو.

ورآها بعينيه المجردتين.

رأى إيلات.

إنا المرة الأولى التى يرى فيها العدو فوق أرضه.

والعقبة.

إن النظرة الواحدة يمكن أن تجمع بين العقبة وإيلات.. كأنهما مدينة واحدة.. الفاصل بينهما فراغ لا يتجاوز عدة أمتار.. كيلومتر واحد.. وليس بينهما حتى علامات واضحة مميزة للحدود... إن بين ألمانيا الشرقية والمانيا الغربية حائطا.. ولكن ليس هناك حائط بين العقبة وإيلات.. ورغم ذلك فالفارق بينهما كبير..

إيلات تبدو مدينة تنحدر فوق تل من القمة حتى ساحل البحر وكأنها لوحة فوتوغرافية معروضة أمامك تستطيع أن

تراها بكل شوارعها وكل بيوتها.
والعقبة تبدو كأنها ضاحية سياحية لهذه المدينة.
وتوقف جادالله عن إطلاق عينيه فوق أرض العدو على صوت محركات لنش حرس السواحل الأردنى يقترب منه.
وقفز الضابط على ظهر المركب وبدأ السؤال :
- من أين ؟
- من مصر.
وابتسم الضابط ابتسامة كبيرة وقال بصوت فرح :
- أهلا وسهلا.. لماذ لا ترفعون العلم.
وقال جادالله وهو متعجب من كل هذا الترحيب الذى استقبل به :
- ليس لدينا علم حتى نرفعه.. إنه مركب صغير ولم تتعود رفع الأعلام.
وطاف الضابط بعينيه فوق وجوه رجال المركب واتسعت ابتسامته كأنه تأكد أنهم كلهم مصريون، ثم خطا فى جوانبها كأنه يقوم بعملية تفتيش وتوقف برهة سريعة أمام آلة اللاسلكى دون أن يعلق بشىء.. ثم ترك المركب لأحد المرشدين ليصل بها إلى مكانها من الميناء.
وكان المرشد عونى الأيوبى أكثر فرحة وترحيبا بالمركب المصرى رغم أنه لا شىء سوى مركب صيد صغير لا يزيد طوله على عشرة أمتار.. وانطلق فى حديث لا يتوقف مع الريس جادالله ومع الريس عويضة الذى يقف بجانبه على الدومان يقود المركب.. ومن خلال الحديث فهم جادالله سر كل هذه الفرحة وهذا الترحيب.

لقد انضمت الأردن إلى اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر وسوريا.

أصبحت مع مصر في موقف واحد.

ولم يكن على المركب راديو ليسمع هذه الأنباء ولكن لماذا لم تبلغه القيادة بهذا التطور وهى تعلم أنه يدخل ميناء العقبة الأردنى.. ربما كان قد فكر فى خطة أخرى يدخل بها.. لا يهم.. إنه الآن مسئول عن نفسه بعيدا عن القيادة.

وأصر جادالله على أن يرسو بمركبه بين مجموعة من مراكب الصيد والمراكب التجارية الصغيرة حتى يتستر بينها ولا يثير اهتمام إسرائيل.. وكان يطلب من المرشد عونى كأنه يلقى أمرا وعونى يتلقى الأمر فى فرحة.

وكان المفروض بمجرد أن ترسو المركب وطبقا للقوانين البحرية فى الحالات الاستثنائية أن تقفل كابينة اللاسلكى ويختم بابها بالشمع الأحمر ولا تفتح إلا بعد أن تترك المركب الميناء حتى يكون كل اتصالاتها بالخارج عن طريق لاسلكى الدولة نفسها.. ولكن لا أحد اهتم بلاسلكى المركب « علم الروم ».. لا الضابط ولا المرشد.. كأنها مركب تابع للأسطول الأردنى.. وربما كان الضابط والمرشد قد فهما سر هذا المركب الصغير دون أن يفصحا عن شىء ودون أن يكون جادالله قد كشف لهما عن شىء.

وبمجرد أن ألقى الخطاف اتخذ جادالله مكانا فوق المركب يستطيع منه أن يرى إيلات كلها دون حاجة إلى منظار معظم.. وأخذ من اللحظة الأولى يسجل مراكز الدفاع حول الميناء ويسجل كل ما يلتقطه من تحركات برية وبحرية وجوية.

لا يمكن أن تكون كل هذه التحركات مجرد تحركات عادية روتينية.. إن هبوط وصعود الطائرات لا يتوقف.. وعدد السيارات واللوارى التى تدخل وتخرج أكبر من أن تحتاج إليه حالة عادية.. والقطع البحرية الصغيرة التابعة للأسطول الإسرائيلى لا تتحرك ولكن كل شىء فوقها يتحرك.. إن درجة الاستعداد التى أعلنتها إسرائيل فى إيلات أعلى من درجة الاستعداد التى أعلنت فى الإسكندرية أو فى باقى الموانىء المصرية.

وهو يرسل كل ما يلتقطه إلى القيادة بالشفرة.. وإبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى لا يترك مكانه.

لقد أمر جادالله كل طاقم المركب بعدم النزول إلى البحر.

وفى الليل التف جادالله ببطانية فوق قميصه المهلهل وبنطلونه المتآكل وذقنه الطويلة وشعر رأسه الذى طال حتى أصبح يغطى قفاه.. وبقى فى مكانه وكل عينيه مسلطتان على ميناء إيلات.. إن الحركة لا تهدأ حتى بالليل بل إن تحركات سيارات النقل تزداد.. نقل القوات ونقل الأسلحة والمتطلبات.. ويغلبه التعب ويحاول أن يوزع النوباتشية بين عينيه. عين تنام وعين صاحية.. ويقرر أن يستعين بالريس عويضة فى المراقبة ليغفو قليلا ويرتاح.. ولكن هذه ليست مهمة عويضة ولن يفهم ما يراه ما يفهمه هو.. وهو يستطيع أن يقاوم ويستطيع أن يتحمل.

وكان خلال كل ذلك يدير عينيه إلى ميناء العقبة.. لا شىء.. لا حركة إلا الحركة العادية لأى ميناء سياحى.. ليس فيه إلا رصيف واحد رئيسى فى حين أن إيلات تضم أكثر من ثلاثة

أرصفة.. كل ما فيها حركة تجارية محدودة، وحركة عدد من مراكب الصيد.. ثم هناك فى الناحية الأخرى من الشاطىء بعض الأفراد يلعبون لعبة الزحف فوق الماء ويعلقون أنفسهم بلنش يجرهم على الماء فوق زحافات.. هل هذا وقت اللعب.. ربما لهذا لا تفكر إسرائيل فى الاستيلاء على العقبة.. أو ربما تعمد الأردن أن تجعل من العقبة منطقة معزولة السلاح حتى لا تستولى عليها إسرائيل.. إننا نلقى السلاح أمام العدو.

وفى صباح اليوم التالى سمح لاثنين فقط من رجاله بالنزول إلى المدينة لشراء تموين المركب من الأرز والبطاطس الذى يستكملون به مع السمك أكلة المدفونة.. ثم فوجىء عند الظهر بضابط خفر السواحل يأتى ومعه حمل كبير من مختلف الأطعمة وكمية كبيرة من السجائر.. سجائر ريم.. يا جماعة لا تفضحونا أمام العدو.. إن ترحيبكم بنا قد يكشف عن حقيقة مهمتنا.. قال هذا الكلام فى سره ولم يقله للضابط فهو لا يريد أن يقول للضابط كل شىء.. والضابط مستمر فى ترحيبه.. إنه أقل ما يجب نحو أول مركب مصرى يدخل العقبة منذ زمن طويل لو كان مجرد مركب صيد.

وجادالله يشكره بلهجة الصيادين التى كان يحاول أن يضعها على لسانه كلما تكلم مع غريب.. ورجاله تكاد الفرحة تقفز وتطير بهم.. هذا خير كتير.. نعمة.. وابراهيم المرجوشى يحاول أن يقدم نفسه للضابط متملقا.. والريس عويضة يتقبل الهدية فى فرحة شامخة كأنه رئيس قبيلة تتقرب له القبائل الأخرى بالهدايا.. ومد جاد الله يده إلى علبة سجائر.. إنه يضعف دائما أمام السجائر وقد حمل معه تموينا من سجائر

كليوباترا يكاد ينتهى، لعل سجائر ريم تعوضه عنها.. واستراح وهو يدخن ريم وعيناه تطلان على ميناء إيلات.

وقبل الغـروب جاء عـونى الأيوبى إلى المركب وبصـحبـته فتاة.

إنه تزوج من مصـرية وهذه شقيقـة زوجته.. وقدمـها له.. زهرة.. وجادالله يعـود ويحادث نفـسـه.. إنهم سيـفضـحوننا.. يا جمـاعة نحن لا أكـثر من مـركب صيـد.. أعملوا مـعروف.. وعونى يقول إن هذه زهرة لم تستطع أن تقاوم فـرحتها عندما سمعت أن قطعة من مصر قـد وصلت إلى العقبة وأصرت على أن تأتى لتلتـقى بإخوتها المـصريين.. وجـادالله مشدود إليـها بعينيه.. إنها حلوة.. ملفوفة.. شعرها الأسود موج هادئ فوق كتفها.. وعيناها تنطقان بكل سذاجة مصر وطيبة مصر وإغراء مصر.. ووجد نفسه وهو بين عينيها يتذكر زيزى ويتذكر حقه كـبحـار له فـتـاة فى كل مـيناء.. إن زيزى مـيناء الاسكندرية وزهرة ميناء العـقبة ومن حـقه أن يرسو عليـها.. وزهرة تقف أمامه وتتطلع فيه هو وحده دون بقية من على المركب رغم أن كلهم مصريون، كأنـها تستطيع أن تراه من خلف ذقنه الطويل وقميصه المـهلهل وبنطلونه المتآكل وقدميه الحافـيتين.. كأنها ترى فيه الملازم عبدالحمـيد مهران لا الريس محمود جاد الله.. واقترب المـرجوشى منها ولسانه يلعق شـفتيه وبقـية الرجال اخذوا نظرة ثم انصـرفوا عنها والريس عـويضة تعلو شفتـيه ابتسامة حنونة هادئة كـأنه يلتقى بابنته.. لم يحمل سطح هذه المركب قـدمى أنثى إلا قدمى ابنته عندمـا كانت أحيـانا تحمل إليـه الطعـام وهو يرسو فى مـيناء السـويس.. وزهرة تسـأل

أسئلة لا تنتهى عن مصر والمرجوشى يسبق بالإجابة، وهى تستمع إليه وعيناها معلقتان بوجه جادالله وهو يبتسم ابتسامته الباردة حينا ويقول كلمة أو كلمتين ثم يعود ويدير كل وجهه إلى أرض العدو كأنه يهرب من زهرة ويهرب من إحساسه بأنه فى حاجة إلى امرأة ميناء.

ودعا المرشد عونى إلى العشاء فى بيته.. واعتذر جاد الله.. قال إنه مضطر أن يبقى مع عليش حتى ينتهى من إصلاح الماكينة.. وابتسم عونى ابتسامة خبيثة كأنه يفهم كل شىء وأخذ زهرة ونزل من المركب وهى تلتفت خلفها فى كل خطوة كأنها تحاول أن تشده وراءها، وتقف فوق الأرض وترفع رأسها إليه كأنها تقبله بابتسامة ثم تخفض رأسها فى خجل وتبتعد سريعا فى خطوات تتعثر فى خجلها.

والتف جاد الله بالبطانية وجلس على سطح المركب فى مواجهة إيلات يرقب التحركات فوقها وسؤال يتردد فى عقله.. ماذا تعرف السلطات الأردنية عن حقيقة مهمته.. وسواء كانت تعرف أو لا تعرف فهل بعد أن انضمت إلى القيادة المشتركة يصبح من واجبه أن يصارحها بهذه المهمة حتى تعاونه على أن يجمع مزيدا من المعلومات.. لا.. إن القيادة لم تبلغه شيئا.. وهو مرتبط بالاحتفاظ بسرية مهمته، ثم إنه لا يعرف مدى ارتباط الأردن بالقيادة، وكثيرا ما كانت تشكيلات الوحدة سواء كانت سياسية أو عسكرية مجرد مظاهر كاذبة.. ورغم ذلك فهو لا شك فى حاجة إلى الاتصال بأهل البلد حتى يستنزف منهم أسرارا لا يمكن أن يلتقطها بعينيه المجردتين من فوق المركب.. لعل من المصلحة أن يتقرب أكثر من عونى

الأيوبى.. لا شك أنه يعـرف الكثير.. وابتـسم كأنه يســخر من نفسه.. هل يريد التقرب من عونى أم من زهرة.

وبقى طول الليل ملتفـا بالبطانية وقد قسم نوبتـشية النوم بين عينيه. عين تنام.. وعين لا تنام.. وأفكاره تختلط بأحلامه.. لا يدرى هل يفكر أم هل يحلم.. ثم تقـفز كل أعصابه، صــاحية كلما لمح ضوءا جديدا ينطلق من فوق إيلات.

وفى الصباح حدثت مفاجأة.

صـعد ضــابط خـفر الـسواحل إلى المـركب وقـال للريس جادالله ورجاله إنه جاء ليبلغهم رسالة رسمية.. إن جلالة الملك قد أخذ علما بوصولهم وجلالته يرحب بمركب الصيد المصرى وبرجاله ويعـتبرهم ضـيوفا عليه فى الـعقبة.. وقـال الضابط تأكـيدا للتـرحيـب.. كل البلد تحت أمركـم.. اعتـبروا أنفـسكم مدعوين فى كل مكان من البلد.

وانطلقت الفرحة فوق كل الوجـوه حتى كادوا يهللون هتافا بحياة الملك وجادالله يقف مبهوتا.

والله عال.. لم يبق إلا أن يرسلوا مـوسيقى الجيش لتـعزف لهم الســلام الملكى الأردنى ويطالبـونه بأن يعـود إلى حالتـه العسكرية وقف تعظيم سلام.. يا جماعـة لا تفضـحونا.. اعملوا معـروف.. إن اسرائيل ترانا كما نراها.. من يدرى.. ربمـا كان الملك على علم بمــهمة هـذا المركب.. لا يمكن أن يرسل تحـية رسمية لمركب صيد عادية.. بل من يدرى.. ربما كانت إسرائيل تعلم أيضا وتراعى تخطيطا معينا فلا تحاول أن تحتك به.

وسكت جـاد الله.. إنه يحاول دائمـا أن يخفى شـخصـيتـه ولا يتصدر للمواقف وترك الريـس عويضة يرد على الضابط..

ربنا يخلى لنا جلالة الملك.. والمرجوشى يتطوع بكلام كثير.. إلى أن غادر الضابط المركب بعد أن ترك وراءه حملا آخر من الهدايا.. أطعمة وشاى وبن وسكر وسجائر.. ومد جادالله يده وسحب خرطوشة أخرى من سجائر ريم.

والرجال يريدون أن ينزلوا إلى المدينة.. ولم يمنعهم جاد الله.. يجب أن يريحهم ويرفه عنهم حتى يحتفظ بروحهم العالية.. ولكنه قسم الرجال الستة إلى ثلاث دوريات.. اثنين اثنين.. لا تخرج دورية إلا إذا عادت من سبقتها.. وعلى كل دورية ألا تغيب أكثر من ساعتين.. وآخر دورية تعود فى الساعة السادسة.. ممنوع السهر فى المدينة.. وممنوع الخمر.. وبقى هو فى المركب، عيناه مسلطتان على إيلات.. يسجل ويرسل بالشفرة.. ويستقبل كل اثنين عائدين من المدينة بسؤالهم عن كل شىء.. كل ما رأوه وكل ما سمعوه.. ودوافع قوية تلح عليه بأن يحاول هو نفسه أن يجمع المعلومات التى لا يراها بعينيه.

وساعة العصر لمح زهرة تتمشى أمام المركب وفى خطواتها تردد كأنها لا تدرى كيف تصل إليه.. ولوح لها بيده مع ابتسامة واسعة لم يتعودها وقفز إليها وأخذته وهى تتعثر فى فرحتها.. وقال وهو يحاول أن يرسم براءته بصوته :

– أخشى أن يكون زوج أختك قد أخذ على خاطره منى لأنى اعتذرت عن دعوته أمس.

وقالت زهرة فى حماس :

– إنه سيدعوك اليوم أيضا.. هل تقبل.

وقال جادالله وهو يحتويها بعينيه :

- يشرفنى.. وقد أوحشتنى مصر.. أحس كأنى سأتناول العشاء فى مصر.

وجرت زهرة من أمامه كأنها على عجل لتعد له العشاء.

وجاء عونى الأيوبى مع الغروب وقال :

طمأنتنا زهرة إلى أنك ستقبل الدعوة هذه المرة.

وذهب معه إلى البيت بعد أن اتفق مع الريس عويضة على أن يحل محله فى مراقبة التحركات فوق إيلات ويحفظها فى ذاكرته إلى أن يعود.. لم يتفق مع المرجوشى.. إنه لا يثق فيه.

وقدمه عونى إلى زوجته المصرية.. وكل ما يقدمونه إليه مصرى حتى الملوخية بالأرانب.. خيل إليه أنه يذوق الأرانب لأول مرة من طول ما غابت عنه.. لقد كان يعيش فى دنيا ليس فيها إلا سمك.. وزهرة تقوم على خدمته وهى تترنح فى حياء كأنها فى انتظار أن يطلب يدها من زوج شقيقتها.. وبدأ يتحدث مع عونى عن احتمالات الحرب وما يذاع عن مصر وعن إسرائيل.. وعونى لا يعتقد أنه ستكون هناك حرب.. إنها مجرد مظاهرات سياسية.. وكل هذه الحركة فى إيلات ليست أكثر من المعتاد.. إنهم فى كل فترة يقومون بتحركات كأنها مناورات تدريبية.. صحيح أنه لم تصل إلى إيلات بواخر أجنبية منذ أسابيع.. وصلت مركب منذ أسبوع.. وإيلات لا تستقبل عادة بواخر كثيرة.. إنها ميناء عسكرى أكثر منها ميناء تجاريا.. وجادالله يسأل.. مراكز السلطة فيها.. مراكز الثكنات.. القيادة البحرية والقيادة البرية والقيادة الجوية.. والشوارع.. والكباريهات والمقاهى.. وعونى يجيبه فى هدوء دون أن يبدو عليه الشك فى مهمته رغم أن كلها تساؤلات لا تدخل فى

اختصاصات ولا اهتمامات صـياد.. مجرد صياد.. وقال جادالله كأنه يحاول أن ينفى الشبهة عنه :

– إنها المـرة الأولى التى أصل فيـها إلى العقـبة مع الريس عويضة ولذلك أسألك عن إيلات من كثـرة ما سمعت عنها.. ثم لأنى رأيتها أكبر مما تصورت خصوصا بالنسبة للعقبة.

وقال عونى ضاحكا :

– إيلات مـيناء عـمل.. وهنا مـيناء للـنزهة والتـزحلق على الماء.. وغادر جادالله البيت وزهرة تنظر إليه بعينيه متساءلتين كأنها تسأله متى ؟

وكان سـعيدا بالمـعلومات التى جـمعهـا من عونى رغم أن معظمـها قد يكون مسجـلا فى أرشيف المخابرات الـمصرية.. وهو سعيد لأنه وصل إلى هذه المـعلومات بنفسه لا عن طريق المخابرات.. وجلس على سطح المركب ملتـفا بالبطانية يسجل كل ما سـمعـه بعد أن راجع الريس عـويضة فـيما التـقطه من تحركات فوق إيلات.

كان الغـد هو اليوم الرابع للمركب « عـلم الروم » فى ميناء العـقبة.. إنه الـيوم الأخيـر.. وبعده يجب أن يـبحر عـائدا إلى القاعدة.. وجـادالله يراجع المعلومات التى جمعـها ورغم كل ما جمعه فهو مقتنع بأن لا يزال هناك معلومات ناقصة.

وفى الصـباح جاءت زهرة تـحمل صيـنية بقـلاوة، وقالت ضاحكة لجاد الله :

– هذه ليست لك.. فقد أخذت نصيبك منها أمس.. إنها لباقى إخوتى.

وقال جادالله هامسا :

- هل أستطيع أن أراك اليوم ؟
وهزت رأسها فى حياء موافقة..
وعاد جادالله يهمس :
- الساعة الثالثة.. عند نهاية الرصيف.
وتركت زهرة صينية البقلاوة بين أيدى إخوتها وجرت فرحة.
ولاقاها فى الساعة الثالثة بعد الظهر.. والحركة راكدة على الرصيف وبدأت تخف على أرصفة إيلات.. وصحبها إلى قارب صغير يؤجر للسواحل وأخذ يجدف بها فى اتجاه الميناء الآخر.. ميناء إيلات.. ولم يكن هذا ما يمكن أن يعتبر تسللا إلى أرض الأعداء فالقوارب الصغيرة تروح وتجىء فى المياه التى تجمع بين العقبة وإيلات.. وبدأ يحادثها كأنهما فى رحلة حب.. إنها تقيم مع شقيقتها منذ ثلاثة أشهر ولا تدرى متى تعود إلى مصر.. وهى لا تريد أن تتم تعليمها إنها توقفت عند الشهادة الابتدائية.. وقال مبتسما :
- إنى أومن بأن مستقبل أى بنت هو الزواج.. الزواج ولا شىء آخر.
وقالت فى خفر :
- لن أتزوج إلا فى مصر.
وقال ضاحكا :
- على ألا يكون بحارا حتى لو كان من مصر.
وقالت فى جزع كأنه يطردها بعيدا عنه :
- لماذا.. ماذا ينقص البحار.
وقال وهو لا يزال يضحك :

- إن البحـار بالنسبـة لزوجتـه أشبـه بالمخدر.. يـخدرها بوجوده ثم يـتركهـا مخدرة ويغـيب عنها شـهورا فى البـحر ويترك فى كل ميناء فتاة مخدرة.

وقالت بشفتين غاضبتين :

- إن البحـار قد يطوف بالموانى ولكن له دائما مـيناء يعود إليه.. لا يطوف به ولكنه يعيش فيه.. أختى متزوجة من بحار.. إلا إذا كنت أنت من هذا النوع.

وقال فى رقة مفتعلة :

-أبدا.. ولكننى فقط أردت أن أعرف رأيك فى زواج بحار.

قالت مبتسمة كأنها تخدره من أن يكشف عن نفسه :

- مفروض إنك صياد.

وقـال وهو يرمى ناظريـه إلى الشـاطىء.. إنه يقـتـرب من شاطىء إيلات :

- إنى أصطاد على الأرض.

وهو يقترب أكثـر من أرض إيلات.. وكان القارب قد وصل إلى زاوية صخـرية يختبى فى ظلهـا وترك المجدافـين وانتقل بجانبها وهو يقول :

- إنى أدعوك إلى شباكى.

ثم انحنى على شفتيها يقـبلها ومن خلال القبلة يرفع عينيه إلى الشاطى.. لا أحد.. الأرصفة البعيـدة خالية.. وترك شفتيها وقال ضاحكا :

- قبلتك ذوبتـنى.. انتظرينى هنا لا تحركى القـارب.. وقام وقذف نفـسه فجأة فى المـاء وهو بقميصـه المهلهل وبنطلونه المكرمش وقدميـه الحافيتين وذقنه الطويل وشـعر رأسه الذى

يغطى قفاه.
وقد سبق لـه أن تدرب في فرقة الضفـادع البشرية كبـقية الغواصـات.. وهو يغوص تحت الماء رغم أنه لا يحمل مـعدات الضـفدع البـشر.. وهو يحـاول أن يرى من بعيـد تحصـينات الميناء مـن تحت الماء.. إنه يرى مجـموعـة أسلاك ممـتدة فى جوانب كثيرة من قـاع الميناء.. وهو يعلم أن مثل هذه الأسلاك توضع متصلة بدائرة كـهربائية تطلق إنذارا فى مركـز القيادة إذا مســها أى جـسم.. ورأى مجـموعة مـن الألغام معلـقة فى أمـاكن أخرى تـحت الماء .. الألغـام التى تنطلـق فى موجـات انفجـارية تطيح بكل ما فوقـها وما تحـتها وما حـولها ورأى.. ورأى.. إن قدرته على البقـاء تحت الماء تصل إلى أربع دقائق.. كـفى.. وطفـا فى هدوء فـوق المـاء إلى أن وصل إلى القـارب وارتفع إليه وألقى بنفسه بين ساقى زهرة وهو يقول ضاحكا :
– آسف.. إن كل صـيـاد ينقلب فى فـرحـتـه إلى سـمكة.. فرحتى بك :
وهى تنظر إليـه فى دهشة لا تسـتطيع أن تعـبر عنهـا ولو بكلمة.. إنه غريب.. لعله مجنون.. أو لعله خطير.
وعادا إلى الشاطىء وافـترقا على غير موعد كـأنهما ارتبطا إلى حد لم يعودا فى حاجة إلى مواعيد لقاء.. واكتفى بأن قال :
– غدا.
وقالت :
غدا.
ولم يكن لهما أبدا غد.

٣

كانت التعليمات تفرض على الريس جادالله ألا يبقى فى ميناء العقبة أكثر من أربعة أيام يعود بعدها إلى مقر القيادة.. وقد كان يعتقد أنه يجب أن يبقى أكثر وإلى أن تنتهى هذه الحالة التى تهدد بالحرب، فالتحركات فى إيلات لا تتوقف بريا وجويا وبحريا.. إنه لم يكن يعتقد أن تتسع لكل هذا النشاط والاستعداد العسكرى، وكان يجب أن يبقى كمركز استطلاع لمصر خصوصا وإنه لم يجد فى ميناء العقبة أى مركز استطلاع تابع للأردن.. إن العقبة مستسلمة استسلاما كاملا لإيلات حتى كمجرد مظهر عسكرى.. ورغم ذلك كان يجب أن يخضع للأوامر ويعود إلى مقر القيادة فى السويس.

وقرر أن يتسلل خارجا من الميناء دون أن يبلغ حرس الحدود الأردنى ولا صديقه المرشد عونى الأيوبى ولا حتى زهرة.. كان يخشى لو أبلغهم أن يبالغوا فى مظاهر وداعه فيلفتوا نظر اليهود إليه فيتتبعوه خارج الميناء وينفردوا به فى البحر.. تسلل فى آخر الليل قبل الفجر وهو يلقى آخر نظراته على الأضواء التى لا تهدأ حركتها فوق ميناء إيلات وعلى الأضواء المطفأة فوق ميناء العقبة.. وترك « الدومان » للريس عويضة معتمدا عليه اعتمادا كاملا فى تأمين قيادة المركب

كعادته، واستلقى فوق السطح وكل ما يملأ فكره وإحساسه هى صورة زهرة.. فتاة الميناء.. إنها ليست مجرد فتاة ميناء.. لم يحملها إلى الميناء إلا زيارة أختها زوجة المرشد عونى.. إنها فتاة فى انتظار الزوج والبيت.. ورغم ذلك فقد كانت الضحية الوحيدة فى كل العملية السرية التى قام بها.. لا ينكر أنه غرر بها.. حرك فى خيالها صورة لمستقبلها معه.. ثم أنه قبلها وهما فى القارب بجوار أرصفة إيلات قبلة طويلة.. لا يدرى كيف أحست بقبلته فهو شخصيا لم يحس بها.. كان يقبلها كمجرد مظهر خادع يخدع به أى يهودى يمكن أن يراه وهو يتسلل قريبا من الأرصفة.. كأنها رحلة غزل وليست رحلة تجسس.. ولكنه لم يخدع اليهودى وحده خدع معه زهرة فهى لم تكن تعرف أنها فى رحلة تجسس.. كانت تظن أنها فى رحلة غزل.. لا يهم.. إن المرأة لها دائما دور رئيسى هام فى كل الحروب حتى لو كان هذا الدور.. وكل تاريخ اليهود يعتمد على نساء بعن أنفسهن لرجال الأعداء لإنقاذ شعبهن.. كل امرأة تنام مع عدو تعتبر فى نظر التاريخ اليهودى قديسة كدليلة التى استولت على شمشون.. وزهرة لم تعط نفسها لعدو وإنما فقط أعطت قبلة لجندى من بلدها وإن لم تكن تعرف أنه جندى ولا أنه فى مهمة عسكرية.. وغم ذلك فقد كان يجب عليه على الأقل أن يودعها قبل أن يهجرها بكلمة حلوة.. بوعد.. ولكنه ودعها بكذبة عندما اتفق معها على لقاء الغد وكان يعلم أن لا غد لهما.. الله يسامحه.

وكان قد أرسل إشارة إلى القيادة بتحركه خارج ميناء العقبة.. وفى نفس اليوم والمركب السلحفاة تتحرك ببطء وسط مياه خليج العقبة تلقى من القيادة إشارة بأن يتجه

مباشرة إلى ميناء الغردقة.. وكان المفروض أن يتجه إلى السويس.. لماذا الغردقة.. لا يهم.. تكفى فرحته بأن القيادة قد اتصلت به.. إنها لم تتصل به أبدا منذ بدأ إلا بكلمة « علم » أى إن رسالته وصلت.. وكانت هذه الكلمة تطمئنه إلى أن الشفرة لم تتغير كما حدث من قبل وتغيرت دون أن يبلغ بتغييرها.

وأبلغ الريس عويضة بالتعليمات الجديدة.. وكان يصعد ويعلق نفسه بقدميه الحافيتين فوق السارى يستطلع ما حوله.. لا شىء.. الخليج كله هادىء هدوءا غريبا.. لا مركب.. ولا طائرة.. ولا حتى قارب صيد.. ربما كانت الأزمة قد انتهت وعاد الهدوء.. ولكن هذا الهدوء يمكن أن يكون مريبا .. أكثر من هدوء .. عادى .. إنه لا يدرى شيئا.. والمركب ليس عليه جهاز راديو.. وهو يقضى وقته فى الاستطلاع حينا، وفى استعادة المعلومات التى جمعها وتسجيلها فى أوراقه حينا.. وأحيانا يصطاد السمك مع بقية الطاقم بخيوط اللنسا التى تصطاد سمكة بسمكة.. وأحيانا يجلس مع عويضة ليسمع منه حكايات الصيادين ويتعلم منه فن الصيد ولهجة الصير.. وأحيانا يجلس مع إبراهيم المرجوشى ويلاعبه الكوتشينة كأنه يتقى شره.

ورحلت المركب « علم الروم » إلى الغردقة.

وصلت عند الظهر ٥ يونيو.

وفوجىء جادالله بدرجة الاستعداد فى الغردقة قد ارتفعت إلى الدرجة القصوى وعلم فى كلمات عابرة مع من التقى بهم وهو فى طريقه إلى القيادة أنه حدث هجوم إسرائيلى عند فجر اليوم.. الحرب بدأت.. إنه لم يبلغ بأن الحرب بدأت رغم أنه كان لا يزال فى البحر.. لماذا لم يبلغوه.. ربما كان قد تعرض لشىء

لم يحسب حسابه.. وهو يحس هنا فى الغردقة كأنه لا شىء قد حدث.. تحركات كثيرة لا يفهمها.. واسترخاء فى مراكز أخرى حول أجهزة الراديو المركزة على محطة صوت العرب.. ربما كان صوت العرب هو الذى شغلهم عن أن يستقبله أحد وهو يدخل بالمركب إلى الميناء رغم أنه لم يكن يرقع علما ولا يمكن أن يكون حرس الحدود على علم بمهمته وبموعد وصوله.. دخل كأنه يدخل ميناء حرا وليس أمامه إلا مدفع صغير ومن ورائه عسكرى واحد.. وهو يتلفت حواليه فى حيرة إلى أن وصل إلى مكاتب القيادة.. إنهم هنا أكثر تعبيرا عن الحرب.. الجدية تفرض نفسها على الجميع والراديو فوق المكتب مسجلا على محطة صوت العرب أيضا.. واتخذ وقفة عسكرية فوق قدميه الحافيتين وقدم نفسه :

– الملازم عبدالحميد مهران.

ولم يكن مطلوبا منه شىء ساعتها.. عليه أن يبقى فى حالة الاستعداد القصوى إلى أن يدعى إلى القيادة.. ووجد نفسه يسرع عائدا إلى المركب وهو الآخر يبحث عن محطة صوت العرب.. إن الأخبار مفرحة.. فشل الهجوم الإسرائيلى.. الطائرات الإسرائيلية تتساقط كأوراق الخريف.. ومن حق رجاله الآن أن يرتاحوا على الأرض.. أن يوفر لهم أكلة دسمة وليلة ضاحكة ونومة هادئة.. ولكنه لا يجد من يلجأ إليه.. كل الغردقة تستمع إلى محطة صوت العرب.. وهو نفسه يريد أن يبدل هذا القميص المهلهل وهذا البنطلون المتآكل.. لقد أصبحا قطعا من الخرق البالية القذرة.. ولكنه لن يجد فى الكانتين قميصا جديدا.. وليس معه ولا مليم حتى يشترى من أحد دكاكين الغردقة كان مفروضا ألا يحمل نقودا خلال تأديته

مهمتـه.. والتقى صدفة بصديقه وزميله الملازم بحرى ياقوت العباسى.. إنه هو الآخر كان مكلفا بمهمـة استطلاعية كمهمته.. ولكنه ساخط على كل شيء.. إنه اسكندرانى يعـبر عن سخطه ضاحكا.. وقاطعه عبدالحميد قائلا :

– هل معك نقود.

وأخرج ياقوت من جيبه ستة جنيهات وبضعة قروش وهو يقول ضاحكا :

– استولينا عليها أمس من العدو.

وقال عبدالحميد :

– أقرضنى فى عرضك.

واقتسم ياقوت المبلغ مع عبـدالحميد.. أعطاه ثلاثة جنيهات جرى بها عبـدالحميد إلى دكان اشترى منه قـميصا وبنطلونا.. وأحس وهو يلبسـهما كأنه يرقد على فـراش من ريش النعام.. كأنه يـجلس على كرسى هزاز.. ثم اسـتعـان بصديقـه ياقوت وجمع أكـياسـا من الأرز والبطاطس وعاد بـهما إلى الـمركب، وعاد الطاقم يصطاد السمك بأفتال اللنسا ويجتمعون حول أكلة المدفونة.

إننا فى حرب.

ولا يمكن أن ننتظر راحة ونحن فى حرب.

وهم ملتفون حول صوت العـرب.. كلها أنباء النصر.. وكان عبـدالحميد يمـد يده أحيانا إلى الراديو ويحـاول أن يبحث عن محطة أخرى ولكنه يعود سريعا إلى صوت العرب كأنها أوامر عسـكرية أن يستـمع إلى صوت العـرب، إنها خـيانة واتصـال بالعدو لو استـمعت إلى محطة أخرى.. كـانت الروح العسكرية هى التى تلقى على عـبـدالحمـيد هـذه الأوامر، وهو مـتمسك

بالروح العسكرية حتى يبدو مثلا أمام رجاله.. ونام.

إنها ليلة بعد ليال كثيرة ينام فيها بهذا العمق وهذه الراحة.. ربما لأنه ينام فوق أرضه.

وانتفض واقفا على قدميه الحافيتين عند الفجر على أصوات مفزعة.. إنها غارة.. غارة جوية إسرائيلية على الغردقة وطلب من رجاله أن ينزلوا إلى الشاطىء.. إنهم هناك أكثر أمانا.. وهو يبقى على المركب لعله يستطيع أن ينقذها لو أصيب.. ورفض الرجال أن يتركوا المركب.. إنهم ليسوا عسكريين.. إنهم صيادون.. رجال.. لم ينزل من المركب إلا إبراهيم المرجوشى.. إنه يعرف أن هناك خندقا على الشاطىء لحمايته.

واستمرت الغارة ساعتين.

ولم تصب المركب ولا أى مركب آخر بشىء كان الغارة على الأرض وحدها.. ولم تسقط المدافع المضادة أى طائرة إسرائيلية.. ولم ينطلق أى صاروخ.. ولم تظهر فى السماء أى طائرة مصرية.. وراديو صوت العرب يذيع منذ صباح اليوم التالى ٦ يونيو أخبار الطائرات الإسرائيلية التى تسقط.. إنه لا يقصد الغارة فوق الغردقة.. الغردقة بعيدة وأخبارها لا تصل إلى القاهرة ولا إلى صوت العرب.

وانطلقت الألسن على شاطىء الغردقة تعدد خسائر الغارة، وقال ياقوت ساخرا :

– لم يبق شىء إلا مراكب الصيد.. تركوها للسمك.

وعبدالحميد مغتاظ ثائر.. يحس بأن كل شىء من حوله ناقص.. ضائع.. حائر.. ورغم ذلك فيجب ألا ينقل هذه الثورة إلى رجاله.. إنهم صيادون ويجب أن يحتفظ للجيش أمامهم بكل هيبته.. بدأ بأعمال لا تتوقف.. إصلاح المركب.. تنظيف

المـركب.. ثم قرر أن يدهن الـمركب بلون آخـر.. اللون الأزرق البحراوى.. إنه لون أكـثر تأثيرا فى عمليـات التضليل.. واللون الرمادى يثـير الشبـهات حتى لـو كان على مركب صـيد.. ولم يكن مفروضا أن تدهن المركب دهانا كاملا فيجب أن تبقى فى مظهر المركب القديم الفقير ، ولذلك قرر عبدالحميد ألا يستعمل الفـرشاة فى الدهان بل كـانت تدهن بقطع الخـيش دهانا ليس متكاملا ولا نظيفا كأنها خرق كانت يوما ما ذات لون أزرق.

وكل هذا شـغل الرجال طول اليـوم وحـتى الليل بعيـدا عن المدينة وبعيدا عن الكلام وبعيـدا عن الاستماع لصوت العرب.. حـتى إبراهـيم المـرجـوشى عــامل اللاسلكى فــرض عليـه عبـدالحميـد أن يشترك فى أعـمال المركب حـتى لا يقبل على الشط ويعـود بكلام قد لا يريد عـبدالحـميد أن يسـمعـه أحد.. وكانت السـاعـة قبل منتصف الليل عندما اسـتدعى عبدالحـميد إلى شعبة العمليات.

ووجد هناك ياقوت العباسى وقد استدعى معه.

إنهما مكلفان بمهمة عاجلة.

هناك قوة عـسكرية من ضابط وعشـرين جنديا فى جزيرة صنافير ومطلوب نقلها بصفة سرية على مركب صيد.. ومركب « علم الروم التى يتولاها عـبدالحميد لا تتسـع لنقل القوة كلها لذلك تصـاحبـهـا المركب « مـرجان » الـتى يتولاها ياقـوت.. وعبـدالحميد هو المـسئول لأنه سبق أن ذهب وعـاد من اتجاه جزيرة صنافير.

وأسرع عبـدالحميد إلى المركب وهو يتـعجب من هذا الأمر الذى صدر إليـه.. لماذا يكلف بنقل قوة صنافـير وهو على هذا البـعد منهـا فى حين أن أى مـركب من مـراكب شرم الشـيخ

تستطيع أن تنقلها، والمسافة بين شرم الشيخ وصنافير لا تتجاوز ميلا واحدا.. ربما كانت قوات شرم الشيخ قد تحركت.. ولكن حتى لو كانت قد تحركت فلماذا نسوا وراءهم قوات صنافير.. ثم كيف يتركون قوة فى جزيرة صغيرة وليس معها ولا زورق واحد.

إنه لا يدرى شيئا.

لا أحد فى الغردقة يدرى.

كل ما يدور هو ما تذيعه محطة صوت العرب.

وتحركت « علم الروم » عند الفجر وتحركت خلفها « مرجانة » والمفروض أنهما فى طريقهما إلى رحلة صيد.. وعبدالحميد عاد كله إلى شخصية الريس جاداالله.. وتعمد أن يلطخ قميصه الجديد باللون الأزرق الذى كان يدهن به المركب، ويهلهل بنطلونه، وقدماه الحافيتان تصعدان به فوق السارى.. والهواء يطير شعر ذقنه ورأسه الذى ازداد كثافة وطولا.

لا شىء فى البحر حتى السمك يبدو أنه دخل المخابىء.

وبعد سبع ساعات وصلوا إلى الجزيرة الصغيرة صنافير.. إنهم لا يرون أحدا فوقها.. وطافوا حولها لا أحد لعل أفراد القوة تركوا الجزيرة.. ولعلهم أيضا مختبئون داخلها غير واثقين فى مركب للصيد لا يرفع علما.. لم يكن فى أحد المركبين مرايا يمكن استعمالها فى إطلاق إشارات ضوئية للجزيرة.. وليس فى أحدهما سرينا أو صفارة مدخنة يمكن أن يطلقا بها إشارة صوتية تنبه من على الجزيرة إن كان عليها أحد.. وأمسك جاداالله بلوح صغير من الخشب واقترب به من مدخنة المركب وأخذ يحركه فوق فوهتها.. يرفعه ويخفضه..

وبدأت المدخنة تطلق صوتا أجش ولكنه يمكن أن يصل إلى سمع من على الجزيرة ثم أن التلاعب بدخان المركب بلوح الخشب يمكن أن يثير الانتباه.

وظهر أفراد أرض الجزيرة.

أخيرا.

وبدأوا يتصايحون متحدثين.. إلى أن اطمأن أفراد القوة إلى أنه مركب صيد مصرى جاء لإنقاذهم.. واقترب المركبان من الساحل وألقى كل منهما خطافه.. إن القوة التى كانت فوق الجزيرة مكونة من ضابط وعشرين جنديا وزعوا بين المركبين.. حمل جادالله معه سبعة من الجنود.. إن المركب علم الروم لا تحمل أكثر من ذلك.. لا سلاح.. محرم على مركب الصيد حمل السلاح، ولا شيء آخر من المعدات.. المركب لا تحتمل أى ثقل آخر.

وأرسلت إشارة إلى القيادة.. نجحت العملية.

وتلقى جادالله إشارة من القيادة.. اتجه رأسا إلى السويس.

لابد أن الطريق آمن حتى السويس ما دامت القيادة قد أمرت.. وجاد الله يتحدث مع جنود القوة .. كيف تركوكم وحدكم فى الجزيرة.. لماذا لم تكونوا على اتصال بقيادة شرم الشيخ.. وقال الجنود وهم أكثر حيرة من جادالله.. لقد كانوا فى انتظار مركب التموين التى تصل من شرم الشيخ أول أمس.. ولكنها لم تصل.. وحاولوا الاتصال أمس بالقيادة هناك فلم يستطيعوا.. وتحركات إسرائيل فى المنطقة تحركات كثيفة إنهم يرون من بعيد تحركات مراكب إسرائيل.. مراكب حربية.. ولكنهم لا يعلمون ماذا يجرى هناك.. والغارات الجوية متتالية وقد طاروا فوق صنافير عدة مرات ولكنهم لم يضربوا.. وكل

ما استطاعته قوة صنافير هو تحسين نفسها فى الخنادق وتحت الصخور.. ولم تصلهم أى إشارة من القيادة ردا على إشاراتهم المتتالية، وصوت العرب لا يذيع شيئا خاصا بهم.

وجادالله يسمع وتزداد حيرته.. ولكن لا شك أن القيادة قد حسبت حساب كل شىء ما دامت قد أمرته بأن يتوجه إلى السويس وهى تعلم أن طريق السويس هو الطريق المعرض لتركيز الهجوم الإسرائيلى.. القيادة مطمئنة وصوت العرب مطمئن أيضا.

والمركبان البطيئان يزحفان فوق الماء بسرعة السلحفاة.

وجادالله معلق فوق السارى بأقدامه الحافية ومنظاره المعظم فوق عينيه.. وعند منطقة رأس محمد لمح فى الأفق ثلاث قطع بحرية صغيرة.. لنشات.. لابد أنها قطع من الأسطول المصرى.. لا يمكن أن يكون الأسطول الإسرائيلى قد وصل حتى رأس محمد.. لا يمكن.. واللنشات تقترب وهو يستقبلها من خلف منظاره المعظم.

وفجأة صرخ.

إنها قطع إسرائيلية.

لم يعرفها بأعلامها ولكنه عرفها لأنه سبق أن رآها بذاتها عندما كان فى إيلات.. إن رادار اللنشات المصرية رادار ثابت لا يتحرك، ولكن الرادارات على اللنشات الإسرائيلية تتحرك وتدور حول نفسها.. إنه يعرف هذا.. وهذه لنشات إسرائيلية.

وأرسل إشارة الخطر إلى ياقوت على المركب مرجان، ثم اتجه إلى جهاز اللاسلكى وتعاون هو وإبراهيم المرجوشى واثنان من الرجال فى رفعة من على أرض المركب وإلقائه فى البحر.. وجمع كل أوراق الشفرة وكل أوراقه الخاصة وأشعل

فيها النار وتخلص من آثارها.

كل هذا تم فى دقائق.

وتم على المركب الآخر.

واتفاق سريع مع كل المجموعة.. إنهم صيادون استغاث بهم رجال القوة التى كانت مرابطة فى صنافير لينقلوهم إلى السويس.. هذا هو كل ما يقال.

وأحاطت طلقات النار بالمركبين.. طلقات فوقهما وطلقات حولهما.. إنها طلقات مدافع عشرين مللى.. إنه يعرفها وأوقف جادالله الموتور.. وفى دقائق كان فوق المركب ستة من الإسرائيليين.. اثنان منهم يحملان رشاشات « عوزى ».. وكلهم يتكلمون العربية بلهجة مصرية.. وصرخ واحد منهم :

– إلى الوراء أنت وهو.

وتلكأ الريس عويضة فلكزه الجندى الإسرائيلى بحافة الرشاش صارخا :

– قلنا إلى الوراء يا راجل يا عجوز يا وسخ.

وعاد يصرخ :

– ورا يا ابن الشرموطة أنت وهو.

وصرخ أحد رجال قوات صنافير :

– خليكم فى أدبكم.. يلعن اللى جابكم.. الشراميط فى بلدكم.

وانقض الجنود الستة يضربون كل من تصل إليه أقدامهم وأكفهم ويطلقون طلقات فى الهواء إرهابا.. وسقط المرجوشى على حافة المركب يبكى.. وجادالله كان أول من استسلم لأوامر وخطى سريعا إلى مؤخرة المركب، وإذا بجندى إسرائيلى يرفع كفه وينهال بصفعة على وجهه وهو يقول كأنه يسخر منه :

- اثبت مكانك.

والصفعة ترن فوق وجه جادالله.. وعيناه تبرقان كأنه يشعل بهما النار فى خصمه أو كأنه يشعلها فى نفسه حتى يحرق أعصابه قبل أن يثور ويعرض نفسه لرصاص من رشاش عوزى.. ولم يتحرك.. ورنين الصفعة لا يهدأ فى أذنيه.. يحس كأن هذه الصفعة قد رسمت كل مستقبله.. كل خط حياته.. لن يستطيع أن يعيش إلا إذا أسكت رنين هذه الصفعة.

وتجمعوا كلهم فى مؤخرة المركب، وقال الجندى الذى يحمل فى وجوههم الرشاش :

- انتم رجال عبدالناصر.. على جزمتى انتم وعبدالناصر.

وجادالله يضغط أكثر على أعصابه.. إن عبدالناصر هو العلم إنهم يمزقون علم مصر.. ولا يملك إلا أن يبقى ساكتا.

وتولى أحد الإسرائيليين إدارة موتور المركب، وأمسك آخر « بالدومان » عجلة القيادة، ووقف الباقون فى الحراسة وأحدهم يغنى بالمصرى أغنية.. حلوة يا محلى نورها شمس الشموسة.. ثم انقلب يغنى.. بلادى.. بلادى لك حبى وفؤادى.. ثم نظر إلى جادالله وقال فى ضحكة ساخرة :

- خلاص.. بلادك حتبقى إسرائيل.

وبعد ساعة وصلوا شرم الشيخ.

لأول مرة يعرف جادالله ومن معه أن شرم الشيخ وقعت كلها تحت أقدام إسرائيل.. ربما لم يصل الخبر إلى محطة صوت العرب رغم أن الخبر يبدو أنه مر عليه أيام فالخليج الصغير « الجونة » مزدحم بزوارق إنزال الجنود والأرض مزدحمة بالدبابات وقوات المظلات كلها إسرائيلية.. وابتسم جادالله ساخرا من نفسه.. إنها المرة الثانية التى يقع فيها

أسيرا بشرم الشيخ.. المرة الأولى أسرته القوات المصرية والآن تأسره القوات الإسرائيلية.

وساقوهم إلى الأرض.

وأجلسوهم على قرافيصهم فى انتظار وصول المركب الثانى مرجان.. وعندما اجتمعوا كلهم صاح واحد من حملة الرشاشات :

- كله يرفع إيديه لفوق.

ورفعوا أذرعهم إلى أعلى ومر بهم اثنان من الجنود ينزعآن الساعات من كل يد مربوطة فيها الساعة إنه نظام عسكرى لسرقة ساعات الأسرى.. ثم أمروا بأن يخفضوا أذرعهم، وعاد جندى يصيح باللهجة المصرية :

- اللى فى جيبه شىء يخرجه.. كل واحد يفتش نفسه بدل من أن نفتشه.

ولم يكن فى جيوب جادالله شىء سوى خمسة وسبعين قرشا بقية الجنيهات الثلاثة التى كان قد اقترضها من ياقوت وبقية علبة سجائر كليوباترا وولاعة رخيصة.. وأخرج ما فى جيوبه ووضعها فى يديه المفتوحتين وهو جالس القرفصاء.. صامت.. ورنين الصفعة الإسرائيلية لا يزال يملأ أذنيه.. ومر جنود إسرائيل يجمعون ما فى الأيدى الممتدة وتثور شكوكهم حينا فيرفعون الأسير واقفا على قدميه ويفتشونه وقد لا يخرجون منه إلا بمصحف قرآن صغير أو بصورة لابنه أو زوجته ولا يتركون له شيئا.

واستراحوا من جلسة القرفصاء، ومال جادالله على ياقوت وكان جالسا قريبا منه يريد أن يطمئن عليه بكلمة، وإذا بعصا غليظة تنهال فوق كتفه والجندى الإسرائيلى يصرخ :

- ممنوع الكلام يا وسخ.. عبدالناصر مانعكم من الكلام طول عمره وهنا كمان ممنوع الكلام.. انتم تعودتم على الكرباج.. والكرباج وراكم.

ولم يتأثر جادالله بضربة العصى الغليظ كل ما حدث أن ارتفع رنين الصفعة فى اذنيه.. كأن الصفعة تركته قالبا من زجاج يرن كلما مسه شئ.

والشتائم القذرة تنهال على كل الرجال وكأنهم قد اتفقوا جميعا بتبادل النظرات على ألا يردوا عليها.. كلهم صامت.

وبعد ساعات نقلوهم إلى «جونة» أخرى.. قطعة أرض فضاء أحاطوها بالأسلاك الشائكة.. ووجدوا فيها بعض جنود من قوات حرس السواحل المصرى.. وتساءل جادالله بينه وبين نفسه.. أين بقية القوات المصرية التى كانت فى شرم الشيخ.. هل أسرت ورحلت إلى مكان آخر.. أم انسحبت قبل أن يصل اليهود إليهم.. لا يدرى.. ولكنه تمنى لو أنهم أسروا.. لا لأنه حاقد يريد أن يعانى الجميع ما يعانيه ولكنه يحس أن الأسر لا يقلل من قيمة الشرف العسكرى.. لقد أسر فى عملية وهذا أشرف من أن يهرب أو ينسحب من عملية.

وبقوا ليلتين فى شرم الشيخ.. لا أحد يقدم لهم ماء ولا أكلا. وقد يمر بهم جندى إسرائيلى فيلقى إليهم ببسكوتة أو قطعة من شيكولاتة أو سيجارة. يلقيها بينهم ويقف ليمتع نفسه بمشهد تزاحمهم وتعاركهم حول لقمة العيش كأنهم نسانيس فى قفص حديقة الحيوان.. ولكنهم كانوا قد اتفقوا فى صمت على ألا يمدوا أيديهم إلى ما يلقى إليهم.. ولكنهم يريدون على الأقل ماء ليشربوا.. وصاحوا.. ماء.. وجاءوا إليهم بجردل ماء.. ونظر فيه جادالله.. إنه فعلا عطشان.. ولكن هذا

الماء له لون.. لونه أبيض كماء الصابون.. وأخذ ينظر إلى زملائه وهم يشربون.. لم يحدث لأحد منهم شيء.. ورغم ذلك لا يستطيع أن يقنع نفسه ليشرب.. مضى ثلاثة أيام وهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتكلم وكل ما يحس به هو رنين الصفعة على وجهه.

وفى اليوم الثالث جمعوهم فى قارب من قوارب إنزال الجنود مما يسمونه « بعبوعة » وكدسوهم الواحد فوق الآخر داخل حزام من الأسلاك الشائكة.. وأبحر بهم القارب.. والبرد قارس والبحر هائج.. وجنود صنافير وحرس السواحل يتدفأون من البرد أحدهم بالآخر ولم يتعودوا على البحر الهائج فيتقيأون فوق بعضهم البعض، ومدخل القارب تتسرب منه أمواج البحر فتغرقهم، وجاداالله واقف معصور بين أجساد الأسرى ويتحمل فوق رأسه القيء ويتلقى ماء البحر كأنه يغتسل بهما، وهو يرقب قيادة هذا الزورق. إن القائد جندى عادى.. شاويش ومعه أربعة يحملون المترليوزات.. وهم يطلقون أغانيهم ويستمعون إلى موسيقى الراديو.. ويشربون.. ويأكلون.

إنه يقارن بين ما يأكلونه ويشربونه وما يأكله ويشربه الجندى المصرى كأنه فى رحلة دراسية.. وهو صامت لا شيء يمكن أن يقرأ على وجهه، ولا حتى التعبير عن الإرهاق وعن الاستسلام ولا صوت ينطلق فى داخله إلا صوت الصفعة التى ترن على وجهه.

وبعد ثمانى عشرة ساعة وصلوا.

وصلوا ميناء إيلات.

إيلات التى غزاها وفتحها منذ سبعة أيام فقط.

ويرفع كفيه فوق عينيه.. إنه لا يريد أن يرى إيلات وهو أسير بعد أن رآها وهو غاز.

وأنزلهم من « البعبوعة » وصفوهم فى طابور وساروا بهم فى عرض استعراضى فى شوارع إيلات.. إنه رأى هذه الشوارع ورسمها من بعيد وعرف أسماءها من صديقه المرشد عونى الأيوبى.. وزحام الناس على الجانبين يتفرجون عليهم ويشتمون عبدالناصر ويشتمون العرب.. ويشتمون بكل اللغات وكل اللهجات.. بالعبرى والعربى والانجليزى والروسى.. ويسمع لهجة مصرية ولهجة لبنانية ولهجة عراقية.. ويهودى يصرخ ضاحكا فى وجهه :

– مش عايز حاجة من أمك.. أنا حافوت عليها الليلة.

وحول طابور الأسرى حرس كبير يحرسهم من اعتداءات المتفرجين.. ترى هل يمكن أن تكون زهرة بين المتفرجين.. من يدرى.. ربما كانت إسرائيل قد استولت على ميناء العقبة وضمتها إلى إيلات وأصبح من حق أهلها أن يقفوا فى زحام المتفرجين.. وحتى يهرب من كل ما يراه وهو يسير فى طابور الأسرى حافى القدمين والقذارة تغطيه من رأسه وتلف كل جسمه.

ووصلوا بهم إلى مستودع قديم ربما كان جراج سيارات أو مخزن بضائع وحشروهم كلهم فيه ملتصقين أحدهم بالآخر كأن كلا منهم يتنفس بأنفاس الآخر.. وجذبه الشاويش قبل أن يدخل ثم جذب معه واحدا من حرس الحدود وآخر من أفراد قوة صنافير.. كل منهم تميزه ملابسه.. وأخذ الثلاثة بعيدا عدة خطوات وتكلم باللغة العربية وبلهجة قدرها جادالله على أنها

لهجة عراقية وقال فى صوت متعال مغرور وكلماته تنطلق من أنفه :

– الحرب انتهت.. كسبناها وهزمناكم فى ستة أيام.. وعبدالناصر استقال.. تخلصوا من أحلامكم وساعدونا على أن نعاملكم معاملة حسنة حتى لا تضطرونا إلى الضرب.. وأنتم الثلاثة مسئولون عن زملائكم وسنرحلكم غدا إلى بير سبع.

ولم يصدق جادالله.

ولم يصدق أن كل شىء انتهى.

لم يصدق أن عبدالناصر استقال.. لا يمكن أن تصل الهزيمة إلى هذا الحد.

وأدخلوه إلى المستودع وحشروه بين بقية الأسرى.. وبعد قليل دخل جنديان يحملان صفيحة كبيرة وقطعا من الخبز، ووضعا ما يحملانه بينهم وخرجا بلا كلمة.... إنها أول وجبة تقدم إليهم منذ أسروا.. ومضى عليهم ثلاثة أيام لا يأكلون.. وهجموا كلهم على العيش وعلى ما فى الصفيحة.. إن ما فيها مربى سائلة.. كأنها كانت فعلا مربى حلوة ثم اذابوه فى قنطار من الماء.. وصرخ ياقوت فى الجميع وانضم إليه النقيب ضابط قوة صنافير ونظموهم وأعادوهم إلى الهدوء.. واحد واحد.. وكل واحد قطعة من الخبز مغموسة فى ماء المربى.. لم ينل كل واحد أكثر من قطعة فى حجم أصبع اليد.

وناموا بعضهم فوق بعض وأنفاسهم والرائحة الكريهة التى تنبعث منهم تخنقهم.

وألقوا إليهم فى الصباح بقطع من الجبن المتحجر وحمل آخر من الخبز.. ثم قادوهم إلى مجموعة من سيارات نقل البضائع المكشوفة، وفوق كابوت كل لورى اثنان من الجنود

يحمل كل منهم مترليوز.

وانطلقت بهم السيارات دون أن يعصبوا أعينهم كما هى العادة عند نقل الأسرى.. ربما كانت الحرب قد انتهت فعلا، أو ربما كانوا يعتبرونهم من التفاهة بحيث لا يستحقون عصب الأعين.

والطريق طويل.. وهو محشور بين الآخرين فوق اللورى يتلفت حواليه فى برود كأنه سائح يتفرج على ما يمر به كعادة أى سائح يقارن بين ما يراه وما فى بلده.. الشوارع.. البيوت.. الأشجار.. إلى أن وصلوا إلى بير سبع.

معسكر استقبال الأسرى.

معسكر واسع يمتد كيلومترات فوق أرض فضاء ومقسم بالأسلاك الشائكة إلى مربعات.. ومئات من الأسرى.

الأغلبية وجوه مصرية بينها وجوه فلسطينية وأردنية وسورية.

وفرقوا بين الأسرى المدنيين والأسرى العسكريين.

الحمد لله.. إنهم يعتبرونه أسيرا مدنيا.. صيادا.. وقذفوا به بين الأسلاك الشائكة المخصصة للمدنيين.. أغلبهم مصريون.. عمال مناجم المنجنيز والفحم فى سيناء.. ومهندسون.. ومدرسون.. وأطباء من غزة والعريش.. وقضاة.. ومهربو الحشيش.. ووجد نفسه بين كل هؤلاء وقد قسموهم إلى مجموعات.. كل مجموعة داخل حزام الأسلاك الشائكة.. وينامون مسطحين على الأرض.. والحر فى النهار يذيبهم والبرد فى الليل يجمدهم وكل منهم يحتاج إلى الآخر ليتدفأ به.. وأى رأس ترفع من على الأرض يطلق عليها الرصاص.

وكل يوم يلقون بينهم صندوقاً من صناديق البيبسى كولا

مليئا بالبصل والجزر والطماطم والجبن.. لا خبز.. ولا لحم.. هذا كل نصيبهم كل أربع وعشرين ساعة.. وحاول ياقوت أن ينظم توزيع التموين.. ولكن لم يكن الأمر سهلا.. والأسرى يتضاربون حول نصيب كل منهم، والحرس من خلف الأسوار يضحكون.. ثم يلقون بقطعة من الخبز من فوق السور ليتزاحم حولها الأسرى ويضحكون أكثر.

والحراسة عنيفة.. إنها تعبر عن لذة القسوة والوحشية.. الرصاص يطلق فوق رؤوسهم بمناسبة وبغير مناسبة ويفاجأون فى الليل بطلقات الرصاص ثم يقومون فى الصباح ليجدوا جثة أسير ملقاة فوق الأرض بين الأسوار وتبقى ملقاة أمام أعينهم أياما إلى أن يجندوا بعض الأسرى لحملها ودفنها فى التراب.

وجادالله يعيش فى صمت دائم.. لقد اكتشف مخدرا عجيبا.. إنه يعرض رأسه للشمس إلى أن يصاب رغم تعوده على مقاومة ضربة الشمس، ويصاب بنوع من الإغماء يتركه كأنه نائم.. وفى الليل يعيش على صوت الشيخ عبدربه وهو يتلو القرآن.. إنه من عمال المناجم.. وهو يتلو وهو ممدد على ظهره ورأسه على الأرض كما تقضى التعليمات.. إن القرآن رحمة.. إنه كل ما يجده المسلم من رحمة بعد أن تضيع رحمة البشر.

إلى أن جاء دوره وأستدعوه إلى مكاتب المعسكر.. وسألوه عن اسمه وبلده ومهنته وتاريخه وسجلوا كل ذلك بالحروف العبرية فى ورقة ثقيلة علقوها فى رقبته.. إنه يحس وهذا الخيط معلق فى رقبته كأنه عبد مقيد من العبيد الذين يراهم فى الأفلام التى تحكى حكايات العبيد.. يحس كأنه ثور معلق فى ساقية إسرائيلية.. إنه يحس بهذا الخيط الرفيع كأنه يخنقه

ويحس بهذه الورقة الصغيرة المعلقة فوق صدره كأنها صخرة تكتم أنفاسه وتعصر قلبه.

ومندوب الصليب الأحمر يمر مع الضابط الإسرائيلى وينظر إليهم مبتسما كأنه يمر فى رحلة سياحية ليشاهد الآثار الإسرائيلية.

ومضى خمسة وعشرون يوما.

وحملوهم فى اللوارى مرة أخرى عبر طريق واسع عريض أوتوستراد يمر بكل جمال فلسطين.. وكل خير فلسطين.. إلى أن وصلوا إلى معسكر « تكريت» على الساحل قريبا من ميناء حيفا.. إنه معسكر قديم.. كان معسكرا للانجليز وخصصه اليهود منذ البداية كمعسكر للأسرى.. أسرى حرب ٤٨ وحرب ٥٦ واليوم يستقبل أسرى ٦٧.. ومد جادالله بصره وهو يدخل المعسكر.. آلاف.. آلاف من الأسرى.. إنه يلمح من بعيد كأن الجيش المصرى كله قد وقع أسيرا.. والأردنيون.. والسوريون.. وجادالله يقاوم الانهيار.. لم ينته كل شىء.. لم تقع مصر أسيرة.. لابد أن هناك شيئا قد بقى لمصر.

وجد نفسه لأول مرة داخل غرفة من القشلاق.. أخذوه بعيدا عن العسكريين فهو لا يزال مدنيا.. صيادا.. ووجد نفسه مع كل طاقم المركب فى غرفة عادية.. واستراحت قدماه الحافيتان لأول مرة لمجرد أنه وجد نفسه فى الظل بين أربعة جدران وليس فوق التراب.

وانتقل إلى نوع جديد من حياة الأسر.. ساقوهم كل أربعة معا وأوقفوهم عرايا وقاموا بتعفير كل منهم بغبار الد. د. ت. وبعدها بدأوا يمسكون بكل واحد ثم يطبعون على جسمه علامة باللون الأسود مكتوبا عليها كلمات بالعبرية.. يطبعونها

فوق صدره وفوق ظهره وفوق ركبته.. علامات تطبع بالزيت فلا يمكن إزالتها وكأن كلا منهم أصبح ماركة مسجلة « أسر فى إسرائيل ».. وأعطوا لكل منهم حلة « أوفرول » يلبسها فوق لحمه، ثم عادوا بهم إلى العنبر داخل القشلاق.

وهو عنبر يضم أربعين فردا كلهم من الصيادين أهالى غزة وطاقم المركب علم الروم والمركب مرجانة.. وتقدم لهم وجبتان فى اليوم.. وجبه إفطار ووجبة غداء ومن حق كل فرد أن يدبر من الوجبتين وجبة ثالثة للعشاء.. لم يكن يهم جادالله ماذا يأكل.. إنه لا يعرف ما يأكل ولكنه يأكله..

ويقضى كل وقته مع زميله ياقوت ومع الريس عويضة وبقية أفراد الطاقم ويخرج معهم إلى فناء القشلاق فى الساعة المخصصة للفسحة.. وعم شتا صياد عجوز من غزة تعدى السبعين يصيح بين كل حين وآخر.. كلما ضاقت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج.. وعويضة يتحدث عن السمك وعن أولاده.. كل له وحشة فى إحساسه.. السمك والأولاد.. والحرس كله من اليهود العرب.. بل ربما قصدوا أن يكونوا من يهود نفس البلد الذى جاء منه الأسرى.. وفيهم حرس من يهود اسكندرية.. إنهم يتغنون بالاسكندرية وبأيامهم فيها، ويسخطون على حالهم فى إسرائيل.. إنهم هنا كأنهم الطبقة الحقيرة.. وحارس يهودى جاء فى نوبتشية صرخ بمجرد أن دخل.. عبدالله.. ثم انطلق إلى أحد الأسرى يحتضنه ويقبله فى وجهه.. سلامات يا عبدالله.. ازى أخوك حمدى.. والله زمان.. إنه يهودى من القاهرة هارب منذ خمس سنوات وكان صديقا لعبدالله الروح بالروح.

ولم يجر معهم تحقيق جدى.. جاءوا ونادوا على صيادى

العريش وبعد أسبوع نادوا على صيادى شرم الشيخ.. وقام جادالله ومعه طاقم المركب.. وسألوهم عن القوة التى كانوا ينقلونها من جزيرة صنافير.. وأجابوا نفس الجواب.. ثم لا شيء آخر.

وبدأ جادالله يتأقلم مع حياة الأسر.. والإجراءات تخف من حولهم وكلما خفت خيل إلى الأسرى أن الإفراج قريب.. وبعد شهرين بدأوا يوزعون عليهم سجائر.. إنها سجائر رخيصة أقرب إلى سجائر سمسون أرضى التى كان يعرفها فى مصر.. ولكنها سجائر.. منذ ثلاثة أشهر لم يلمس بشفتيه سيجارة.. ثم مدوا حنفيات الماء إلى داخل القشلاق.. ووزعوا عليهم قطعا من الصابون الجاف كأن كل قطعة منه طوبة.. ولكنه صابون.. ورائحة الصابون - حتى هذا الصابون - كأنها عطر الورد.. وهو لا يزال ينام على بلاط العنبر.. قدماه حافيتان ورأسه مسنود إلى قطعة حجر يلفها بقميصه ويغطيها بشعر رأسه الذى يصل إلى قفاه وشعر ذقنه الذى طال أكثر.

كل ما كان يثير اهتمام جادالله هو زميله الرقيب إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى.. لقد انفصل عن بقية أفراد الطاقم ووضع نفسه فى عنبر آخر.. وقد حادثه جادالله أكثر من مرة وطلب منه أن يعود إلى عنبرهم بين زملائه.. ولكنه لا يعود.. ولا يختلط بهم فى فترات الفسحة.. لعله يعانى حالة نفسيه نتيجة الأسر.. لعله يستريح فى العنبر الثانى أكثر أو لعله يلعب هناك القمار وهو مدمن قمار.

وكان قد مضى حوالى ثلاثة أشهر على الأسر.

ودخل إلى العنبر ساعة الغروب شاويش يعرفون أنه يتبع مكاتب قيادة المعسكر.. وصاح :

- محمود جادالله.

وقام جادالله وسحبه الشاويش معه إلى مكاتب القيادة.. ووجد نفسه يقف حافي القدمين أمام مكتب يجلس حوله ثلاثة، اثنان منهم بالزي العسكري والثالث مدني.. واستقبله المدني قائلا باللغة العربية وبلهجة أقرب إلى اللهجة العراقية وبين شفتيه ابتسامة كبيرة :

- أهلا حضرة الضابط.

واهتز جادالله وضغط على نفسه حتى لا يفضحه اهتزازه، وعاد الرجل المدني يقول ضاحكا :

- الملازم عبدالحميد مهران.. أهلا بك.

وعين عبدالحميد تتسعان كأنه يبحث لنفسه عن طريق للهرب، إنه يعلم أن القانون الدولي يبيح إعدام ضابط الجيش الذي يتخفى في زي مدني.

هل حكموا عليه بالإعدام ؟

ورنة الصفعة تملأ أذنيه.

٤

كان الثلاثة الذين يتولون التحقيق مع الملازم عبدالحميد مهران ينظرون إليه وبين شفتى كل منهم ابتسامة ساخرة.. لم تتغير ابتسامة أحدهم عن ابتسامة الآخر.. ويتوسطهم ضابط طويل القامة ووجهه طويل طول فردة الحذاء، وكان الزى الذى يرتديه واللهجة الانجليزية التى يتكلم بها تجعله يبدو فى شخصية أمريكية.. لعله يهودى أمريكى جاء إلى إسرائيل مع الحرب.. وعلى يساره كان يجلس ضابط قصير القامة منفوخ الكرش متجهم الوجه رغم الابتسامة الساخرة التى تعلو شفتيه وكان يتكلم اللغة العبرية، ويتكلم كثيرا وتخرج كلماته سريعة كمدفع مترليوز وفيها لهجة اللغة الروسية.. لعله يهودى روسى جاء يحارب مع الأمريكى.. إن مصر لا تحارب إسرائيل إنها تحارب العالم كله.. وكان يتولى توجيه الأسئلة الرجل الثالث الجالس على اليمين.. إنه منفوخ أصلع يرتدى الملابس المدنية.. بدلة كاملة وكرافت.. وكان أهداهم فى كلماته وابتسامته الساخرة أرحم فى سخريتها من ابتسامة الاثنين الآخرين.. وكان الثلاثة يتكلمون ثم يحدد اليهودى الأمريكى السؤال ويتولى عضو اليمين توجيهه إلى عبدالحميد باللغة

العربية وبلهجة تؤكد أنه يهودى عراقى وقال اليهودى العراقى :

- لماذا أخفيت عنا أنك ضابط فى الجيش ؟

وشد عبدالحميد قامته وهو واقف على قدميه الحافيتين وركز على أعصابه فى شخصية المقاتل وقال وهو يتعمد لهجة اللامبالاة حتى يثبت لمن أمامه أنه لا يخاف :

- حتى أحمى نفسى.. وقد عرفنا أنكم تقتلون صغار الضباط الشبان.

وقال اليهودى العراقى فى لهجة هادئة :

- بالعكس.. إننا نعامل الضباط معاملة فى غاية الإنسانية.. إنهم على الاقل ينامون على سرائر وقد ضيعت على نفسك هذه الفرصة فنمت على الأرض.

وقال عبدالحميد فى لهجة قوية :

- ليس مهما أن أنام على الأرض مادمت أحمى نفسى.. وأنى أعرف مقدما أنكم ستوجهون إلى أسئلة لا أريد الإجابة عليها فتقتلوننى أو تعتدون على وأنا أعزل.

وترجم العراقى إجابته للأمريكى والروسى ثم قال :

- إننا لسنا فى حاجة إلى أن نسألك.. المهم.. ما هو مركزك.. ضابط فى أى قوة ؟

وقال عبدالحميد بسرعة :

- أنا بحرى سواحل.

وقال اليهودى العراقى :

- وزميلك.

وقال عبدالحميد وقد ارتفعت جفونه فوق عينيه :

- زميلى من ؟

وقال اليهودى العراقى وقد اتسعت ابتسامته الساخرة :

– حضرة الضابط ياقوت العباسى.

وأجاب عبدالحميد بسرعة لا يبدو عليه أى تردد :

– بحرى سواحل أيضا.

وكان هذا هو ما اتفق عليه عبدالحميد وياقوت منذ الأيام الأولى فى الأسر.. أن يدعيا إذا انكشف أمرهما بأنهما من ضباط السواحل حتى لا يقعا تحت أسئلة خاصة بأسرار السلاح البحرى وحتى يكونا أقل أهمية عند العدو.

وقال اليهودى العراقى ضاحكا :

– ولماذا اخترتما حرس السواحل.

وقال عبدالحميد :

– لم نختر شيئا.. تخرجنا وكان ترتيبنا فى آخر الدفعة فوضعنا فى السواحل.

واستمر اليهودى العراقى يترجم الأسئلة التى يحددها اليهودى الأمريكى :

– بصفتك ضابط سواحل.. فلابد أنك تعرف مراكز زوارق الطوربيد.

وقال عبدالحميد وهو يدعى البراءة وكأنه ساخط على حظه :

– أبدا.. إننا أشبه برجال البوليس المدنى.. كل مهمتنا هى مطاردة المهربين وكل ما نعرفه هى مراكز التهريب.

وقال اليهودى العراقى :

– ماذا كنت تفعل فى منطقة العقبة ؟

وقال عبدالحميد :

– إنها أنشط مناطق التهريب.. إن الحشيش يأتينا من

عندكم. وقد قامت الحـرب ونحن فى طريق العودة وكلفنا بنقل القوة التى كانت فى صنافير.

وقال اليهودى العراقى :

- ماذا كانت أسلحة هذه القوة.

وقال عبدالحميد بسرعة :

- نحن لا نحـمل أسلحة فى المـركب ولم نصل إلى الأرض لنعرف ماذا كان لديهم من أسلحة.. لابد أنكم عرفتم كل شىء.

وقال اليهودى العراقى :

- ربما ألقيتم أسلحة فى البحر.

وقال عبدالحميد :

- لا أدرى.

وتوالت الأسئلة وكان من بـينها أسئلة عجيـبة.. هل تعرف فلانا وفلانا.. وكل فلان هو شخـصية مهمة فى السلاح البحرى.. وعبدالحميد يرد.. لا أعرفه.. لا أعرفه.

وقال اليهودى العراقى :

- إنك تناور.. وأحب أن أقول لك إننا نعرف كل شىء.

وقال عبدالحميد فى استخفاف.

- إذن لم تسألنى مادمتم تعرفون كل شىء ؟

وابتسـم اليهودى العراقى ابتسامته الساخرة وقال :

- قل لى يا حـضرة الضـابط.. لو أردت أن تحج إلى مكة.. لا شك إنك مـسلم وتحب أن تزور مكة.. فى أى طريق تخـتار للحج.. الطائرة أم المركب ؟

واحتار عـبدالحميـد فيما يقـصده المحقق بهـذا السؤال ثم أجاب فورا :

- أختار الطائرة.

قالها فقط ليهرب من سؤال خاص بالبحرية.

وقال اليهودى العراقى وهو يضحك :

- لماذ لا تأخذ مركبك وتذهب إلى ميناء الحمضية السعودى ومن هنالك تذهب إلى مكة.

وارتعشت رموش عبدالحميد فوق عينيه... إنهم يعرفون كل شيء فعلا.. إنه يقصد الميناء التى رسا عند حدودها وهو فى طريقه إلى العقبة ليتجسس على إيلات.. ولكن كيف عرفوا.. من أبلغهم.

وقال عبدالحميد وهو يدعى البراءة :

- لا.. هذا طريق بعيد.

وابتسم اليهودى العراقى ثم مال على اليهودى الأمريكى والروسى وأخذوا يتكلمون باللغة العبرية فترة، ثم التفت إلى عبدالحميد وقال وهو يبتسم له ابتسامة هادئة :

- كم عمرك يا ابنى.

وقال عبدالحميد :

- اثنان وعشرون عاما.

وقال اليهودى العراقى فى صوت هادىء :

- إنك فى عمر ابنى.. وإنى أتمنى لك ما أتمناه لابنى.. أن تعيش وتعمل فى سلام.. لا تصدقوا ما يقال لكم.. أنتم ضحايا عبدالناصر فلا تصدقوه.. وانتهوا منه قبل أن ينتهى منك.

وشد عبدالحميد قامته وقال فورا كأنه لم يعد يستطيع أن يحكم عقله :

- الذى يحارب لا يكون ضحية ولكنه شهيد.. وعبدالناصر يسير بنا حيث نريد أن نسير.. ونهايته هى نهايتنا كلنا.

ونظر إليه اليهودى العراقى فى تعجب ثم هز رأسه فى

يأس وقال :

- غدا قـد تفهم.. أنتم مسـاكين غلابة. وأشـار إلى الحرس وسحبوه عائدين به إلى ثكنة الأسرى المدنيين.

ودخل الثكنة وهو يبحث بعينيـه على زميله ياقوت، واختلى به بعد أن تـركه الحرس وروى له كل شيء.. ولكـن ياقوت لم يستدع للتـحقـيق بعده مـباشـرة.. مضت ثلاثة أيام قـبل أن يدعوه.

وغاب ياقوت أكثر مما غاب عبدالحميد.. غاب عشر ساعات.. فهـو لم يستطع أن يتمـسك بهدوء عبـدالحميـد وانطلق لسانه الطويـل يتكلم ويشـتـم ويسـخـر.. وأشـاروا إلى الـجندى الإسرائيلى المـتخصص فـجاء وانهال عليـه بالصفعـات بينما جنديان آخران يمسكانه من ذراعيـه.. ولكنهم أخيرا أعادوه إلى الثكنة وأخذ يروى لعبدالحميد ما حدث له وهو يضحك ساخرا.

وعـاش الاثنان فى انتظار الإعـدام الذى تحكم به اتفـاقيـة الأسـرى على كل ضـابط يـتـخـفى فى شـخـصـيـة مـدنى.. وعـبدالحـميـد لا يكف عن البحـث فى فكره عن الذى أبلغ عنه السلطات الإسرائيلية.. لابد أنه ابراهيم المرجوشى.. إن ابتعاده عنهم وإصراره على الإقامة فى ثكنة أخـرى يؤكد اتهامه.. وهو يشك فيه ولا يثق فى تصرفاته.. ولكنه حرص على ألا يثير هذا الموضوع حـتى مع زميله ياقوت.. ليس هذا وقـته.. أى إشارة إلى أن بينهم خائنا ستثير ضجة فى المعسكر كله لن تكون فى صالحه.. ثم من يدرى.. لعله أخطأ.. ولعل لليهود وسائل أخرى للوصول إلى ما يريدن معرفته.. وهو يقضى الوقت مع الريس عـويضـة يوصـيـه على طاقم المـركب بـعـد أن يرحل عنهم.. ويحدثه عن عائلتـه حتى إذا عاد عويضـة إلى مصر يروى لهم

كل شىء.. وكان قد سمح للأسرى قبلها بكتابة الخطابات وإرسالها عن طريق الصليب الأحمر.. ولكنه لم يكتب لأهله.. كان يستطيع أن يكتب باسم الريس محمود جادالله.. لا أحد من عائلته يعرف هذا الاسم.

وبعد أسبوع جاءوا وأخذوا عبدالحميد وياقوت.. لم يأخذوهما إلى الإعدام، ولكن اخذوهما إلى معسكر الأسرى العسكريين.. آلاف.. آلاف من العسكريين مصريون وأردنيون وسوريون.. إن بين الأسرى خمسة لواءات من الجيش المصرى.. ووجد عبدالحميد نفسه فى ثكنة بين عدد من زملائه الضباط.. وله سرير.. وفوق السرير مرتبة وبطانية ومخدة.. وأعطوه «أوفرول» جديدا ليرتديه.. وحذاء.. يخيل إليه أنه لأول مرة يضع قدميه فى حذاء.. ووجد أنه لم يعد فى حاجة إلى ذقنه الطويل فحلقه وحلق شعر رأسه الذى كان يتركه يتدلى فوق قفاه.. إنه الآن ضابط وليس المعلم محمود جادالله.. وكلهم يعرفونه على أنه ضابط بحرس سواحل.. لا أحد يعرف أنه ضابط مجموعة القناصات فى سلاح الغواصات.. حتى الإسرائيليون.. لعل ابراهيم المرجوشى احتفظ بهذا السر ورغم كل ما افشى به من أسرار فقد كان يعرف أنهم اتفقوا على أن يقدموا أنفسهم على أنهم حرس السواحل.. ولكن أين ابراهيم المرجوشى.. لماذا لم يحول إلى معسكر الأسرى العسكريين رغم أنهم لا شك عرفوا أنه رقيب فى الجيش.. ربما فقد احترامهم له إلى حد أنهم ضنوا عليه بأن يرفعوه إلى مرتبة العسكريين.. إن معاملة الأسرى تختلف باختلاف الموقف الذى أسر فيه كل أسير.. من يؤسر وهو يقاتل يحترم أكثر ممن يؤسر وهو هارب أو وهو مستسلم.. إن

هذا يبدو فى معاملة اليهود للعسكريين وبينهم اللواء صالح البرديسى.. لقد أسر وقت معركة عنيفة كان فيها بطلا، ورغم عدد الإسرائيليين الذين سقطوا أمامه فقد أسروه وهم يحترمونه.. يحترمون البطولة العسكرية.. وهو يقف فى المعسكر بزيه العسكرى ويحتفظ بعلامات رتبة فوق كتفه الأيسر بينما نزعت من فوق كتفه الأيمن كما تقضى تقاليد الأسر، ويمر به ضباط وجنود إسرائيل فيحيونه التحية العسكرية.. إنه القائد الفعلى للمعسكر وقد استطاع بشخصيته أن يكتسب ثقة الأسرى بمن فيهم الأردنيون والسوريون.. وكان يحدث الكثير داخل المعسكر بما يتطلب تدخل اللواء صالح البرديسى.. اعتدى مرة جندى من الحرس الإسرائيلى على أسير برتبة مقدم فقامت مظاهرة بين الأسرى وبدأوا يتبادلون القذف بالحجارة مع جنود الحرس، ودخلت فرق من الحرس بالهراوات وتطلق الرصاص فى الهواء إلى أن قرر اللواء صالح أن تتوقف الثورة بعد أن توصل إلى إبعاد الجندى الذى تسبب فيها.. وكانت العقوبات تفرض أحيانا بمنع توزيع السجائر أو بالحرمان من وجبة من وجبات الطعام إلى أن يتدخل اللواء صالح.. بل إنه قامت حوادث كثيرة نتيجة تردد المجندات الإسرائيليات على المعسكر.. إنهن يثرن الأسرى.. إنهن يذكرن الأسرى بالحرمان الطويل.

واستطاع اللواء صالح أن يقنع السلطة بأن تمنع دخول المجندات الإسرائيليات فقط لأنهن جميلات. واستراح الأسرى وإن كانوا بقوا ينتظرون كل ليلة أحد أى مساء السبت ليلمحوا من بعيد الحفلات الراقصة التى يقيمها رجال قوات الحرس مع بنات إسرائيل.. كان نفوذ اللواء صالح الذى يفرضه باحترامه

لنفسه نفوذا قويا إلى حد انتشرت إشاعة بأنه كان زميلا لموشى ديان فى كلية هيرست بانجلترا وأنه يجامله كصديق.

والهدايا تصل إلى عبدالحميد عن طريق الصليب الأحمر.. هدايا كثيرة بما فيها شبشب زنوبة ومع تحيات وزير الشئون الاجتماعية.. لا أحد منهم يتقبل تحية أحد.. لا يريدون التحية.. يريدون الحرية.. وهو بين الحين والآخر ترن فى أذنيه رنات الصفعة التى تلقاها على وجهه من البحار الإسرائيلى الذى قبض عليه.. أصبحت هذه الرنات كنوبات الصداع تنتابه بين الحين والحين.. ويمتلىء صدره بالنار.. نار الغيظ.. يجب أن يرد هذه الصفعة.. ولكن كيف.. كيف.. وقد بدأ يفكر فى الهرب هو وزميله ياقوت والرائد شاهين مرسى الذى كان قائدا لقوة جزيرة صنافير.. هل يهربون من البحر أم يجتازون المزارع إلى أن يصلوا إلى الأردن.. ويتدارسون ويرسمون ثم لا شيء.. ولكنه يتمنى أن يهرب إلى الأردن ومن هناك يصل إلى العقبة.. إنه هناك يستطيع أن يصل كشاب مدنى من عائلة صديقه المرشد عونى الأيوبى، ويستطيع هناك أن يتزوج زهرة ليقيم كأى عائلة عادية، ومن هناك يستطيع أن يتسلل إلى داخل ميناء إيلات ويقوم بعملية الانتقام من الصفعة التى لا تزال ترن فى أذنيه.. ثم يهرب من خياله ويجلس ليكتب خطابا إلى والده.. إنه لا يستطيع أن يكتب كل شيء فالخطابات تمر صراحة إلى الرقيب.. المسموح به هو فقط السؤال عن الصحة والعافية.. هل سيكتب لزيزى فتاة الميناء.. فتاة الاسكندرية التى عاش معها أكثر من عام.. لا.. إنه لا يريد أن يكتب إلا لزهرة.. هى التى أعطته.. أعطته إحساسه وزهوه بعمله العسكرى.

إلى أن بدأ الإفراج.

تم أولا ترحيل الأسرى الأردنيين.

وبعدها بشهر ترحيل الأسرى السوريين.

وبعد ثلاثة أشهر عن عبدالحميد مع باقى أسرى القوات المصرية.. أفرج عنه بعد تسعة أشهر وهو أسير.. واستقبلوا على أرض مصر بالموسيقى تعزف لهم.

ووقف عبدالحميد أمام الفرقة الموسيقية التى تعزف وقد لوى شفتيه فى قرف.. إن رنة الصفعة فى أذنيه تعلو على كل هذا الصراخ الموسيقى.. لماذا الموسيقى.. لماذا الفرحة.. إنهم لم ينتصروا.. إنهم عادوا مهزومين كجرحى الحرب إن جرح الأسر لا يشفى أبدا إلا إذا ضمده بأسير إسرائيلى.

وبدأ يسأل منذ اللحظة الأولى عن طاقم سفينته « علم الروم». واهتدى إلى ضابط المخابرات المختص. لقد أفرج عن الأسرى المدنيين قبل شهور من الإفراج عن الأسرى العسكريين.. وقال ضابط المخابرات كأنه يحاول أن يفرحه ويخفف عنه :

– لقد عرفنا قصتك وأنت أسير.. واكتشفنا المسئول عن هذه القصة.

من ؟

إنه إبراهيم المرجوشى.

لقد عاد المرجوشى من الأسر منذ شهرين ، وبمجرد وصوله بدأ يتحرك تحركات غريبة ويقول كلاما غريبا ويسأل أسئلة غريبة فأخذوه وفتشوه ووجدوا فى جيوبه مائتى جنيه عملة مصرية وطربة حشيش. وبقوا معه حتى اعترف.. هو الذى أبلغ عنه وعن زميله ياقوت.. وهو مقدم للمحاكمة.

وقال عبدالحميد كلمة واحدة كأنه يخفف التهمة عن المرجوشى:

ـ إنه لم يقل لهم إنى ضابط غواصات.

ولا يدرى ما حدث للمرجوشى بعد ذلك.

وقد أخذوه إلى الكلية الحربية وأبقوه هناك أياما يلقون عليه فى كل يوم محاضرة.. إنهم يضعونه تحت عملية غسيل مخ.. لن يغسل مخى إلا الانتقام من الصفعة التى لا تزال ترن فى أذنى.. إن الإنسان قد يقتل وتموت فيه روحه وأنا قتلت وإن لم تمت فى إلا كرامتى ولن أعود إلى الحياة إلا بعد أن استردها.. وهم يحدثونه عن جمال عبدالناصر.. ويبررون له كل تصرفاته.. وهو يصرخ بينه وبين نفسه.. اسمعوا.. إنى لم أكن أتحمل كلمة واحدة ينطقها إسرائيلى ضد ناصر.. كنت أعتبره العلم الذى نرفعه فى الحرب والذى يمثل كل قيمتنا وكل كرامتنا، ولكننا هنا بعيدا عن الأعداء وبيننا وبين أنفسنا لا أحس بعبدالناصر إلا كحاكم أخذنا إلى ما نحن فيه.. إنه المسئول.. إنه المسئول.. ولن يعفيه من مسئوليته إلا أن يسترد لنا كرامتنا ويرتفع بنا فوق هزيمتنا.. دعونى أحارب.. لا تسمعونى هذا الكلام حتى لا أفقد إيمانى بأنى استطيع أن أحارب.

وأفرج عنه من معسكر الكلية الحربية، كما سبق أن أفرج عنه من معسكر الأسرى.

وعبدالحميد فى ذهول.. لا يمكن أن تكون هذه هى القاهرة، وهذه هى الاسكندرية، وهذه هى مصر كلها.. هذا الهدوء واللامبالاة كأن شيئا لم يحدث.. كأننا لم نهزم فى حرب وكأن إسرائيل لم تحتل سيناء وكأن ثلاثا من أكبر مدن مصر ليست

تحت رحمة نيران العدو.. وكأن مليونا من أهل القناة لم ينزعوا من بيـوتهم ومن شوارعـهم.. أين هم أهل القناة.. إنه لم يرهم فى بيوتهم ولا يراهم هنا.. لعلهم ذابوا.

وقضى عبدالحميد يوما واحدا مع أبيـه وأمه ثم جرى إلى قـيادته فى السـلاح البـحـرى.. إنه يـريد أن يعـمل.. يريد أن يتحرك.. لم يعد يحتمل الراحة والاسترخاء حتى لإشباع شوق أبيـه وأمه إليـه.. والمفـروض أن الجندى الذى يقع فى الأسـر يعامل بمقـاييس خاصة بعد عودته.. إنه غالبـا يحال إلى أعمال مكتبية، فقد يكون الأسر قـد أضعف فيه روح القتال، ثم إنه لو قـاتل وأسر مـرة أخرى فـإنه يعدم فـورا، ويعامله العـدو بلا رحمـة كأنه مجـرم عائد. ولكن القـادة يعرفون عـبدالحمـيد.. يعرفـون ما يخـفيه من إصـرار على المغـامرة.. يعـرفون إنه شـخصـية أقـوى من الأسر.. فـتـركوه يعـود إلى كل حيـاته العسكرية.

المهم أن يشترك فى عملية.

يريد أن يشترك فـى عملية يرد بها على هذه الصـفعة التى يملأ رنينها أذنيه.

والأيام تمر بلا عمليات.

وهو يفكر فى أن يقـوم بعـمليـة لحـسـابه الخـاص.. نفس العلمية التى خطرت له أيام الأسر..أن يذهب إلى العقبة ويتزوج زهرة ويقـيم هناك إلى أن يتمكـن من القيـام بعمليـة.. عمليـة تدمير.. ولكنه لا يستطيع أن يقنع نفـسه.. إنه عسكرى وروحه العـسكرية تفرض عـليه أن يتـحرك كـعـسكرى.. يتحـرك مع الجيش ومع القيادة لا فى عملية فردية.

وفجأة طلب نقله من مجموعة القناصات إلى فرقة الضفادع

البشرية، ربما لأنه قدر أن مجال العمليات فيها أوسع.. وأجيب إلى طلبه.. وعاش أيامه كلها يستعيد التدريب ويعرض نفسه لأقصى المغامرات.. لا شيء آخر يملأ كل دقائق عمره.. إنه يعيش حالة الحرب كاملة كأنه فى داخل ميدان القتال.. حتى زيزى.. فتاة الميناء.. إنها تجرى وراءه.. تحاول أن تستعيده.. لا.. لا وقت لزيزى.. إننا فى حرب.

وكان قد مضى أكثر من عام.

أوائل عام ١٩٦٩.

وتقررت عملية تقوم بها الضفادع البشرية.. عملية ميناء إيلات.

الميناء التى دخلها كغاز.. وعاد إليها كأسير.. إنه يعرف حتى أسماء حواريها.

وطار عبدالحميد وخمسة من زملائه إلى المملكة العربية السعودية.. وكلهم فى براءة الملائكة.. إنهم فى طريقهم لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول.. واستقبلوا هناك فى صمت وتحركت بهم سيارة كبيرة فى طريق طويل لا يمر بمكة ولا بالمدينة.. طريق انتهى بهم إلى ميناء الحمضية فى أعلى شمال خليج العقبة.. واستقبلوا هناك فى صمت.. ثم عادت السيارة الكبيرة تتحرك بهم عبر الصحراء التى لا نهاية لها.. وهم كلهم مختبئون تحت سقف السيارة والسيارة نفسها سيارة مدنية.. لا شيء يثير الشبهات.. إلى أن وصلوا إلى نقطة حرس الحدود.. إنه نفس المركز الذى لجأ إليه عبدالحميد فى العملية الأولى.. وهو نفس الضابط السعودى ولكنه لم يتعرف على عبدالحميد.. لقد استقبله فى المرة الأولى كصياد حافى القدمين وشعر رأسه وذقنه يغطى وجهه، وقميصه مهلهل

وبنطلونه متــآكل.. ولم يحاول عبدالحـميد أن يذكره أو يـعرفه بنفسه.. والضابـط السعودى يستقبلهم بفرحـة وعيناه تنطقان بالإعزاز والفـخر.. إنه لا يشتم جـمال عبـدالناصر.. السيـاسة تغيـرت.. والسياسة هى التى تـحكم مشاعر الناس.. وقـد كان عبدالناصر مـهزوما سياسيا فى السعـودية.. وقد صفيت آثار الهـزيمة.. وعـبدالحـميـد يسائـل نفســه.. هلى تصالحـوا مع عبدالناصر اقتناعا به أم شفقة عليه بعد هزيمته العسكرية.

وقضــوا يومين تحت سقف بيت صــغير فى مركـز الحدود وهم يستعـيدون كل تفاصيل ميناء إيلات، ويحـفظون المسالك بين الأسلاك الكهربائية التـى سبق أن أكتشفها عبـدالحميد فى القاع، ويستعيدون الخطة كاملة.

وفى الليل.. تحـرك زورق مطاط بين شـعب المرجـان التى سبق أن تراقص بينها الريس عويضــة بمركبه « علم الروم ».. إلى أن وصلوا إلى بعد خمـسة كيلومترات أمام ميـناء العقبة.. وغـاص خمـسة منـهم فى الماء وفـوق ظهـر كل منهم عبـوة أكسجين تكفيـه ثمانى ساعات، وحول معصمـه خيوط متصلة بقطع من الألغـام والعبـوات الناسفة يـشدها من أعلى أكـياس صـغيرة من الهواء تطفو فوق سطح الماء حتى تخفف الثقل عن ذراع الضفدع الذى يسعى تحت الماء.

وهم يعـرفون القطع البـحرية وأمـاكنها من المـيناء.. وكل منهم يعلق فى رسـغه ساعـة بوصلة تدله على الطريق إلى كل قطعة.. ويقتربون من قاع القطع البـحرية ويحشون أو يرفعون ما علق به من حشائش بحرية فى مساحة صغيرة ثم يلصقون بقـاع المـركب اللغم المـغناطيـسى الذى ينفـجر بالتـوقـيت.. مدمـرة.. طراد.. غواصة.. ولكن عـبدالحمـيد يريد أيضـا قطعة

أخرى.. يريد الزورق الذى سبق أن أسر المركب « علم الروم » وخرج.. منه الجندى الإسرائيلى الذى صفعه ولا تزال صفعته ترن فى إذنيه إنه يعرف بهذا الزورق.. إنه زورق إيطالى من نوع « باجالتو » وقد درس هذا النوع حتى القاع.. إنه يستطيع أن يميزه من القاع.. ويزحف الضفدع.. بين المراكب حتى يجده.. يجد الزورق الذى يبحث عنه.. ولصق به اللغم.. واستراح.

قضوا فى قاع إيلات ثلاث ساعات ثم عادوا كلهم سالمين إلى زورق المطاط الذى كان فى انتظارهم.. ثم وصلوا إلى المركز السعودى.. وهناك.. من بعيد.. سمعوا صوت الانفجارات.. ولمعت فى السماء أنوار الحريق.

إيلات تحترق.

إسرائيل تحترق.

وسكت الرنين عن أذنى عبدالحميد.

لقد سمع رد الصفعة.

ولكنه يسمع الرنين يملأ صدر مصر كلها.. هناك صفعة أكبر تلقتها مصر ولم تردها.

وكل شىء يتغير

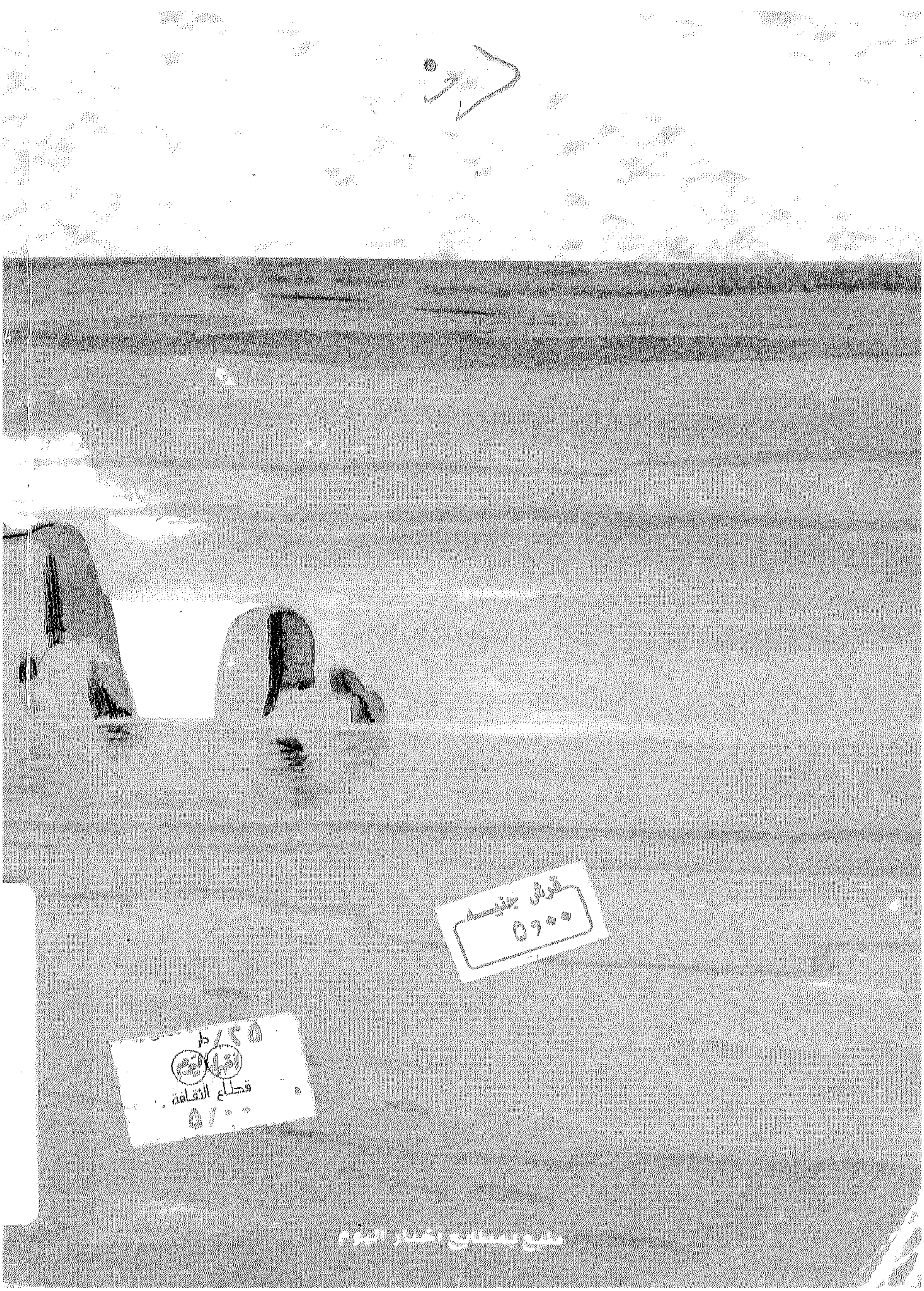
وكل شىء يتحرك وهو يتحرك معه.

وقبل اكتوبر ٧٣ بشهور كان يقوم بنفس المهمة التى كان يقوم بها منذ تخرجه.. الاستطلاع.. على مركب صيد أيضا.. واختار معه أيضا الريس عويضة.. وأطلق على المركب نفس الاسم « علم الروم » وإن لم يكتبه على حافتها حرصا على أن لا تتذكره إسرائيل.. أن « علم الروم » الأولى لا تزال فى الأسر.. ولن تؤسر علم الروم الثانية.

وقـد وصل بمركـبـه حتـى باب المندب فى مـدخل البحـر الأحمر.. من هناك كان يشتـرك فى عملية خنق إسرائيل.. وهو واقف فـوق السارى وذقنـه طويل وشعـر رأســه يغطى قفـاه وقميصه مهلهل وبنطلونه متآكل وقدماه الحافيتان فوق البحر.

ولن تنتـهى حكايات الريس محـمود جـادالله.. وفى أعمـاق البحـر الأحمر جـزيرة صخـرية صغيـرة أصبحـوا يسمـونها «جزيرة جادالله ».

رقم الإيداع ١٤٤٩٤/٩٨
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0784 - 2


قرش جنيه
٥٫٠٠
قطاع الثقافة
٥/٠٠
طبع بمطابع أخبار اليوم